مدرسة الثوار

ذكريات من وراء القضبان

على الشوباشى

2001

العربى للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العينى (11451) - القاهرة
ت : 7954529 - 7921943 فاكس : 7947566

42 ميدان البصرة - شارع دجله من شهاب - المهندسين
ت : 7492145 فاكس : 7618381

E-Mail:alarabi5@intouch.com

الطبعة الأولى

2001

مدرسة الثوار
ذكريات من وراء القضبان

المؤلـــــــف : على الشوباشى

الغلاف للـــفنان : ياسر عبدالقوى

عدد الصفحات : 103

" السجن مدرسة الثوار . . . "

فلاديمير إلليتش لينين

إهداء . . .

إلى ذكرى جميع الشهداء . . . الذين قضوا نحبهم في السجن . . . سواء بسبب أمراض ألمت بهم ولم تعالج . . . أو بسبب سوء المعاملة أو تحت تأثير التعذيب . . .

إلى ذكرى شعبان حافظ . . . وشهدي عطية الشافعي . . .

والدكتور فريد حداد . . . ولويس اسحق . . .

وعبد القادر مفتاح . . . وجميع الآخرين . . .



مقدمة

عندما قرأت، وأنا ما زلت طالبا في الجامعة، عبارة لينين "السجن مدرسة الثوار"، كان أول ما تبادر إلى ذهني هو أن قائد أول ثورة شيوعية استطاعت الاستيلاء على السلطة في العالم، يقصد بتلك العبارة أن السجن اختبار لصلابة الثائر، وصقل لمقدرته على التحمل والمقاومة، ولا شيء أكثر من ذلك. لكنني أدركت كم كان فهمي سطحيا بعد تجربة السجن التي مررت بها مع عدد كبير من الشيوعيين والتقدميين واليساريين، من أول يناير ١٩٥٩ وحتى ٩ مايو ١٩٦٤.

وسأحاول أن أوضح للقارئ كيف ان عبارة لينين أبعد أثرا بكثير مما تصورته قبل هذه التجربة، التي كتب عنها الكثيرون قبلي.

وقد حفزني إلى الكتابة في هذا الموضوع، أن جميع كتبوا عن تجربة السجن، تحدثوا طويلا عن ظروف الحياة اليومية للسجن، وبصفة خاصة عن اللحظات ــ التي طالت أحيانا ــ القاسية إلى حد بعيد، وعن التعذيب (بشيء من المبالغة احيانا كثيرة).

وربما كان الصديق العزيز محمود السعدني هو الوحيد الذي رسم عن هذه التجربة التي مر بها معنا في عدد من أعماله، وبصفة خاصة في "الطريق إلى ذمش" صورة كاريكاتيرية، أعترفُ أن وقائعها قريبة جدا من الحقيقة، وإن أضفى عليها أسلوبه الساخر الرشيق بعدا نزع عنها الصبغة الدرامية التي حاول الكتاب الآخرون إضفاءها عليها.

لكنهم جميعا أغفلوا تقريبا — إلا من إشارات عابرة على ما أذكر — الحديث عن جانب هام جدا من الصورة، ألا وهو ألوان النشاط التعليمي والثقافي والإعلامي والرياضي والترويحي، ونشاط تنظيم الأحوال المعيشية، التي كان المسجونون يقومون بها، في ظروف كثيرا ما كانت صعبة، وذلك على الرغم من الأهمية الكبيرة لألوان النشاط هذه على ما أظن.

وإنصافا لمحمود السعدني، فإنه لم يكن يستطيع تناول الجانب الأول فيما كتبه عن السجن، وبصفة خاصة في "الطريق إلى ذمش"، وذلك لسبب بسيط، وهو أنه — لحسن حظه — لم يبق في السجن سوى بعض العام. فهو في الحقيقة لم يكن شيوعيا في يوم من الأيام، وإنما حامت حوله شبهات رجال الأمن لواقعة كتب هو قصتها تفصيلا في كتابه المذكور، ولا مجال لذكرها هنا. وعندما اكتشفت السلطات هذا الخطأ بعد شهور طويلة، لكنها لم تتجاوز العام، تم الإفراج عنه. وبذلك فهو لم يشهد الجانب الأكبر مما سأرويه هنا .

وهكذا، فقد قررت أن أكتب عن هذا الجانب الذي لم أجده في كتابات الزملاء الآخرين حتى تكتمل الصورة، خاصة وأن هذا الجانب هو الذي لم نكن فيه، نحن المسجونين، مجرد عنصر سلبي من عناصر الصورة، أي مجرد متلقين ومستسلمين أو مقاومين لما يحدث لنا، بل كنا نشكل عنصرا إيجابيا فعالا، يجعل من الظروف الصعبة التي نعيشها فرصة لا نضيعها، حتى نكتسب مزيدا من الثقافة ومن المعرفة، بقدر ما تسمح به الأحوال، لكي لا تكون فترة السجن فترة ضائعة من حياتنا .

وأرجو ألا يسيء القارئ فهم ما قصدته من هذا الذي سأقصه عليه، فيظن أن السجن مكان جميل، يقضي فيه المسجون أو المعتقل أوقاتا سعيدة هانئة.

فالسجن في جميع الأحوال، مكان يفتقد فيه الإنسان حريته وشعوره بالأمان، حتى في أفضل حالاته، ناهيك عن فترات سوء المعاملة والتعذيب. وإنني أكتب هنا عن مجهود خارق كان المسجونون يبذلونه ليقاوموا بالتحديد، الظروف غير الإنسانية التي كانوا يوجدون فيها. ومن هنا يبدو الجانب المشرق من التجربة. وأرجو ألا يشعر القارئ الذي لم يدخل سجنا، أنه يفتقد تجربة جميلة، ويتمنى أن يكون قد خبرها، فالسجن تجربة لا يتمنى من عاشها أن يحياها مرة أخرى، ولا يتمناها حتى لأعدى أعدائه.

وقد كنت مرة، في عام ١٩٧٣، مدعوا على العشاء في إحدى ضواحي باريس الجميلة، التي تشكل الخضرة والأشجار الباسقة معظم أراضيها، عند جان ماري درو، أحد كبار مخرجي التليفزيون الفرنسي. وكان معنا رسام من شيلي، لست أذكر اسمه الآن، هرب من بلاده ولجأ إلى فرنسا بمجرد قلب الأمريكيين لنظام حكم سلفادور الليندي، وآخرون. ووجه إلي درو، الذي كنت قد عرفته في القاهرة أثناء تصويره أحد أفلامه فيها، ونشأت بيننا صداقة عرف خلالها جانبا من حياتي، سؤالا عن تجربة السجن، لأن الرسام كان قد اجتاز نفس التجربة في بلده. فحكيت لهم بعضا مما سأرويه في هذا الكتاب، فإذا بهم يستزيدون، حتى أصبحت المتكلم الوحيد في تلك السهرة. وفي النهاية، طلب مني درو أن أكتب هذه التجربة، قائلا إنه سينشرها في كتاب ، ثم يكتب لها سيناريو ويخرج عنه فيلما للتليفزيون الفرنسي. واعتذرت له قائلا إن هناك الآن حملة في مصر على عبد الناصر وعلى فترة رئاسته، بالإضافة إلى أن أجهزة الإعلام الغربية، لم تتوقف خلال العشرين عاما الماضية على وصفه بالدكتاتور النازي. وقلت له إنني كنت أعارض بعض سياسات عبد الناصر، ولذلك عرفت السجن، لكنني لست مستعدا

على الإطلاق أن أشارك في تقديم مبررات إضافية لمن أعتبرهم أعدى أعداء أفكاري، لمهاجمة نظام لم أكن أعاديه يوما، وإن اختلفت مع بعض ممارساته. وقد أسعدني أن جميع الحاضرين استصوبوا موقفي وأيدوا قراري هذا.

والغريب، أن الرسام اللاتيني رفض، بعد أن توقفت عن الحديث، أن يحكي لنا عن تجربته في سجن بلده، قائلا إنه لا يستطيع أن يحكي تجربة ليس لها مثل القوة والثراء الذين تتمتع بهما تجربة الشيوعيين في السجون المصرية.

وأود أن أضيف إلى هذه المقدمة أنني أكتب هذه التجربة الفريدة من الذاكرة. والمهم فيها – حسبما أعتقد – هو التجربة ذاتها. لذلك فإنني سأنسى قطعا أن أشير إلى أسماء الكثيرين ممن شاركوا فيها. وهذا لن يكون متعمدا أو لأسباب شخصية أو غيرها، وإنما بسبب الذاكرة فقط. فأنا أحكي عن تجربة حدثت منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما، ومن المستحيل أن أتذكر كل تفصيلاتها أو أسماء كل من شارك فيها. لذلك أرجو ألا يشعر أي زميل أكون قد نسيت أن أذكره، أنني أهملت ذكره عمدا، فتلك هي حدود ذاكرتي. وإذا استطاع أحدهم أن يضيف، بالطريقة التي يراها مناسبة، ما نسيته، فإنني أكون ممتنا له.

كذلك، فإنني سأكتب كل ما أتذكره، حتى لو كان مما لا يحب البعض أن يكتب عنه، لأنني أريد أن تكون الصورة مكتملة ــ حسب ما تعيه ذاكرتي ــ بدون تزويق أو إغفال شيء عمدا.

وهناك أخيرا موضوع يحسن شرحه قبل أن ندخل في صلب هذا الكتيب، فسيجد القارئ أنني أتحدث عن "المسجونين والمعتقلين" دون تمييز تقريبا. وقد يدق الفارق بين الوصفين على القارئ الذي لا يعرف هذا العالم، لذلك فلا بد من توضيحه. فالمسجونون هم من صدرت في حقهم أحكام محددة بالسجن أو

بالأشغال الشاقة (وفي الواقع ليس هناك أي فارق في التطبيق - بالنسبة للسياسيين - بين العقوبتين) من إحدى المحاكم، سواء المحاكم العادية أو محاكم أمن الدولة العليا أو المحاكم العسكرية. أما المعتقلون فهم من قد صدر قرار من الحاكم العسكري العام، أو من رئيس الجمهورية أيام فترة سريان قانون حماية الثورة (الذي ألغي منذ ذلك الحين)، باعتقالهم بدون توجيه أي تهمة لهم أو عرضهم على أي جهة من جهات التحقيق، ولمدة غير محددة، قد تكون بضعة شهور أو بضع سنوات. ويحدد قرار الاعتقال ــ الذي يكون جماعيا عادة ــ المكان الذي يتم احتجاز من يشملهم فيه، أو يترك لوزير الداخلية تحديد هذا المكان. وكان يمكن لوزير الداخلية أن يقرر أن يكون مكان الاحتجاز هو أحد السجون العمومية، كما حدث عام ١٩٥٩، حيث نقل المعتقلون من معتقل القلعة إلى سجن الواحات الخارجة، وهو سجن عمومي يتبع مصلحة السجون.

وقد كان المسجونون في سجن الواحات، يسكنون في عنبر والمعتقلون في عنبر آخر. وكانت لائحة مصلحة السجون تطبق على الأولين. أما المعتقلون، فكانت تصدر بشأن معاملتهم أوامر خاصة من المباحث العامة، وكان يمكن تغيير هذه الأوامر في أي لحظة بدون أية رقابة من أي جهة كانت، على عكس لائحة مصلحة السجون، التي لا بد أن تصدر أو يتم تعديلها بقرار واضح ومنشور في الجريدة الرسمية.

لكن المشكلة منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٤، هي أن المسجون الذي ينهي مدة عقوبته، كان يصدر بشكل تلقائي أمر اعتقال خاص به، وبذلك يتحول من مسجون إلى معتقل بين يوم وليلة، ويبقى ــ عادة ــ في نفس السجن، أو يتم ترحيل من انتهت مدة الحكم الصادر عليه إلى القاهرة تمهيدا لإنهاء الإجراءات

الرسمية للإفراج عنه، واستصدار قرار خاص باعتقاله، ثم يعود ثانية إلى سجن الواحات الخارجة وقد تغير وضعه "القانوني" من مسجون إلى معتقل..

كذلك فإن تعبير "المستقلين" في هذا الكتاب يعني من لم يكونوا أعضاء في أي تنظيم من التنظيمات الشيوعية الموجودة في السجن، إما لأنهم لم يكونوا يوما أعضاء في أي تنظيم، مثل الأستاذ محمود السعدني و (المرحوم) الدكتور لويس عوض، و ألفريد فرج و(المرحومان) لطف الله سليمان، وسعد التائه، وغيرهم كثيرون، وإما لأنهم كانوا قد توقفوا عن كل نشاط تنظيمي منذ فترات طويلة، مثل الدكتور فائق فريد والأستاذ على الشلقاني و (المرحوم) عبد السلام زكي مبارك، لكن سلطات الأمن اعتقلتهم على الرغم من ذلك، إما لأنها لم تعرف أنهم توقفوا عن نشاطهم، وإما لأسباب أخرى لا يعرفها غيرها.

وفي ختام هذه المقدمة، أريد أن أوجه شكري العميق للصديق العزيز، المهندس فوزي حبشي على ملحوظاته القيمة على مخطوط الكتاب، والتي أخذت بها جميعا، و على تصويبه لبعض ما كان قد جاء به من هنات وأخطاء. كما أشكره أيضا على الصور التي أمدني بها لكي يرى القارئ بنفسه الأشياء التي تحدثت عنها في الكتاب.

المؤلف

جامعة الشهيد شعبان حافظ

تصور يا عزيزي القارئ "جامعة" تبدأ بفصول لتعليم الحروف الأبجدية الإنجليزية والفرنسية لمن لا يعرفون شيئا عن هاتين اللغتين، وتنتهي بدروس في الرياضة البحتة، طالباها مهندسين، بل وأحدهما أستاذ مساعد للهندسة الإلكترونية! أما مرتبات الأساتذة فكانت سيجارة واحدة عن كل حصة يقومون بتدريسها!

نعم، كان سجن الواحات الخارجة هو المكان الذي نشأت فيه هذه "الجامعة" الغريبة عام ١٩٦٢.

وقبل أن نتحدث عن هذه "الجامعة" وعن نظام التدريس فيها، نقول كلمة صغيرة عن اسمها.

قرر المسئولون السياسيون في جميع التنظيمات الموجودة في سجن الواحات الخارجة، بالإضافة إلى ممثلين عن المستقلين في اجتماع ضمهم جميعا، إنشاء هذه "الجامعة" وإطلاق اسم الشهيد شعبان حافظ عليها.

وشعبان حافظ كان أحد الأعضاء القياديين لأول حزب شيوعي مصري، تأسس عام ١٩٢٣ بزعامة محمود حسني العرابي والمحامي أنطون مارون. وقد ألقي القبض على شعبان حافظ مع باقي أعضاء الحزب عام ١٩٢٤ وحكم عليه بالحبس لمدة ستة أشهر، ثم ألقي القبض عليه مرة أخرى عام ١٩٢٥، حيث حوكم وصدر ضده حكم بالسجن ثلاث سنوات. وفي عام ١٩٣٠، قامت حكومة إسماعيل صدقي، التي ألغت دستور ١٩٢٣ بإيعاز من الملك فؤاد، بحملة واسعة

للقبض على الشيوعيين، لكن شعبان حافظ نجح في الهرب إلى فلسطين – التي كانت تحت الانتداب البريطاني وقتها – على ظهر فرس، ومنها توجه سرا إلى موسكو، حيث دخل طالبا في مدرسة الكادر للحزب الشيوعي السوفييتي. ولما عاد إلى مصر عام ١٩٣٢، كانت الحكومة المصرية قد نجحت في القضاء تماما على الحزب الشيوعي المصري الأول، بعد أن توفي أنطون مارون في سجن الحضرة بالإسكندرية بعد إصابته بمرض السل، ورفض السلطات السماح بتقديم أي علاج له، وبعد أن اعترف محمود العرابي على زملائه ووافق على العمل مع أجهزة الأمن. واضطر شعبان حافظ إلى التوقف عن أي نشاط سياسي.

وفي أواخر الخمسينات، انضم شعبان حافظ إلى أحد التنظيمات الشيوعية الجديدة التي تأسس معظمها في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. وألقي القبض عليه في أول يناير عام ١٩٥٩ بأمر اعتقال، وتوفي في السجن عام ١٩٦٢.

كان قد أصيب بأزمة قلبية في سجن الواحات ولم يعالج منها بمعنى كلمة العلاج، بل إن الزملاء الأطباء، حمزة السيوني وشريف حتاتة و(المرحومان) مختار السيد وممدوح الجندي، وشكري عازر (الذي كان يطلق عليه لقب "دكتور إلا يوم"، لأنه كان قد ألقي القبض عليه يوم كان يستعد لآخر يوم في امتحان التخرج من القصر العيني) والصيدليان (المرحوم) محمود القويسني وسعد بهجت، ساعدوه على تجاوز الأزمة بما بين أيديهم من وسائل بدائية، بعد أن رفضت المباحث العامة نقله إلى مستشفى به إمكانيات علاجه.

وكان شعبان حافظ قد ارتبط بصداقة وثيقة مع (المرحوم) مصطفى طيبة، الذي كان قد صدر ضده حكم بالسجن لمدة عشر سنوات عام ١٩٥٢. وعندما

انتهاء المدة، تقرر ترحيل مصطفى طيبة وزملائه الذين كان قد صدر عليهم حكم مماثل، إلى القاهرة، تمهيدا - كما تصورنا - للإفراج عنهم (والذي حدث هو أن مصطفى طيبة وزملاءه عادوا إلينا كمعتقلين بدون الإفراج عنهم بعد أقل من شهر واحد قضوه في سجن مصر). وانفعل شعبان حافظ انفعالا شديدا وهو يودعه، فقد ظن أنه سيستعيد حريته بعد عشر سنوات كاملة قضاها في السجن. وبمجرد تحرك سيارة السجن التي استقلها مصطفى طيبة وزملاؤه، سقط شعبان حافظ وعيناه مغرورقتان بالدموع من شدة تأثره، حيث أسلم الروح بعد نحو ثلاث دقائق، على الرغم من المحاولات المستميتة التي بذلها زميلانا المعتقلان الدكتور حمزة البسيوني والدكتور شكري عازر، اللذان كانا بالقرب منه، لإنقاذه.

وقد تصرف مأمور السجن تصرفا شهما. فقد قرر إرسال جثمان الشهيد إلى أسرته في الإسكندرية على متن طائرة، ووافق على أن يطوف المسجونون والمعتقلون بنعشه داخل السجن في جنازة رمزية، حيث لف نعشه ببطانية حمراء (رمزا لعلم الشيوعية الأحمر)، وزملاؤه يرددون الأناشيد الثورية وسط دموعهم. وعندما تحركت السيارة التي حملت النعش إلى مطار الواحات، كان هناك - بأمر من المأمور طبعا - حرس شرف من ستة من الجند، أطلق كل منهم ثلاث رصاصات في الهواء تحية للفقيد، بينما كان بروجي السجن يعزف لحن النوم، وقد اصطف المأمور والضباط وأدوا له التحية العسكرية. وهكذا، وبالرغم من كونه مسجونا، فقد تم وداع جثمان شعبان حافظ بما يليق بمناضل مثله.

وتخليدا لذكراه، أطلق اسمه على "الجامعة".

وقد قرر المسئولون "إنشاء الجامعة" لكي تسد حاجة عدد كبير من الزملاء الذين كانوا يرون أنه يتعين عليهم، في ظروف السجن، أن يستفيدوا من معارف

الآخرين من زملائهم. وكان عدد من الزملاء يقـــوم بـــالفعل قبـــل اتخـــاذ ذلـــك القرار، بإعطاء بعض الدروس لأصدقائه الذين يريدون تعلم اللغـــات الأجنبيـــة، بصورة عشوائية. وكان قرار إنشاء "الجامعة" قرارا سياسيا هاما، حتى يســـتفيد أكبر عدد من الزملاء من هذه الدروس، وبصفة خاصة العمال والفلاحون حتـــى، يخرجوا من السجن مسلحين بلغة أجنبية تساعدهم على تحصيل معلومات هامـــة في مجال عملهم، وعلى فهم النشرات التي تصاحب الآلات التي يعملون عليـــها، والتي يمكن أن تساعدهم قراءتها على حسن صيانتها والاهتمام بها، كما تؤهلـــهم من جهة أخرى للقيام بأدوار نقابية قيادية على مستوى البلد، بل وعلى المســتوى العالمي. وبذلك القرار السياسي الهام، أصبح هذا النشاط منظما بصورة جدية.

كانت الدراسة في جميع الفصول تبدأ في تمام الساعة التاسعة صباحا ثـلاث مرات في الأسبوع. وكان كل فصل يحتل زنزانة من زنازين أحد العنبرين اللذيـــن يوجد فيهما المسجونون والمعتقلون الشيوعيون (وفي كل عنبر عشرون زنزانـــة، تتسع كل منها لعدد يتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر سجينا أو معتقلا). وفـــي كل زنزانة خصصت لتلقي الحصص، كانت توضع سبورة. وكان أحـــد الزمـــلاء، وهو محمد حسن جاد (الذي كان يعرف بين الزملاء بلقب "برق"، نظرا لأن عينـــاه كانتا بارزتين بصورة لافتة للنظر)، نجارا، وقام بصنـــع هـــذه الســـبورات مـــن الأخشاب التي تبقت بعد بناء عنابر السجن. وقد احتج مقاول البناء لدى المـــأمور عدة مرات، قائلا إن هذه الأخشاب ملكه، وأن "برق" يسرقها. وعندمـــا استفســـر المأمور عن الأمر، وعرف أن هذه الأخشاب تستخدم لصناعة سبورات للتدريـــس، ضحك، وصرف المقاول بكلمات رقيقة. وكانت السبورات متقنة الصنع، إلى حـــد أنها كانت مثل مثيلاتها في أرقي المدارس. أما الطباشير، فكان يتم صنعـــه مـــن

الجير الذي توجد منه كميات كبيرة في جميع السجون المصرية لطلاء الجدران بصورة منتظمة.

يتجمع "الطلبة" وأساتذتهم في الفصول إذن في التاسعة، ويبدأ الدرس. ويمر المسئول عن تنظيم الجامعة على كل فصل ليعطي المدرس راتبه، وهو سيجارة "بلمونت" كاملة، حتى يدخنها أثناء الحصة إذا رغب في ذلك. فقد كان النصيب اليومي لكل مدخن من المسجونين والمعتقلين يتحدد وفقا للإمكانات المادية للجنة "الحياة العامة" التي تتولى إدارة المالية الجماعية للمسجونين والمعتقلين كما سيأتي. وكان هذا النصيب يتراوح يوميا بين سيجارتين وخمس سجائر (في أفضل الأحوال). لذلك فإن سيجارة كاملة كانت شيئا ذا قيمة كبيرة للمدخن. أما بالنسبة لغير المدخن، فقد كان للسيجارة قيمتها أيضا، فالسجائر هي العملة المعترف بها في جميع السجون المصرية منذ نشأتها وحتى اليوم، إذ أن لائحة مصلحة السجون تحرم على المسجونين حمل نقود داخل السجن، وإنما تسجل النقود التي معهم عند دخولهم السجن أو تلك التي ترد لهم بحوالات بريدية من الخارج في دفاتر السجن، ويخصم منها ثمن ما يشترون من بضائع من الكانتين. لكن ذلك لا يمنع المسجونين الأثرياء من تهريب النقود إلى السجن والتعامل به في العمليات الكبيرة التي لا تكفي السجائر لتسديدها. ولكي أضرب مثلا على ذلك، فإن تجار المخدرات مثلا، أو كبار الموظفين المحكوم عليهم بعقوبات بتهمة الاختلاس، وغيرهم من الأثرياء، كثيرا ما يشترون كميات من الحشيش لاستهلاكهم الشخصي، لا يمكن تسديد ثمنها بالسجائر، لذلك فإن معهم دائما نقود بوفرة. وأذكر بهذه المناسبة واقعة طريفة. فقد تم نقل من تبقى في السجن من الشيوعيين بعد أن تم الإفراج عن جميع المعتقلين في شهري مارس وإبريل عام

١٩٦٤، إلى سجون الأقاليم لفترة ثلاثة أسابيع قبل تجميعنا في سجن مصر. وكنت ضمن المجموعة التي نقلت إلى سجن الزقازيق. ويوم وصولنا، وجدنا سجانا كنا قد عرفناه في الواحات، ونشأت بيننا وبينه علاقة طيبة. فقد كان شديد المرح خفيف الظل، ويتمتع بذكاء شديد. ورحب بنا هذا السجان ترحيبا حارا. وعند وقت إغلاق الزنازين، فوجئنا به يمد يده لنا بلفافة صغيرة من الورق المفضض قائلا إنها "تحية بسيطة". وعندما استفسرنا منه عما بها، أجاب في بساطة شديدة "حتة حشيش على ما قسم". وبجهد كبير أقنعناه أن الشيوعيين لا يتعاطون الحشيش، وأننا نشكره على أية حال لنواياه الطيبة. وغضب أول الأمر معتقدا أننا نتكبر عليه، لكننا نجحنا آخر الأمر في إقناعه بصدقنا..

أما الشيوعيون، فقد كان لديهم نقود أيضا لاستخدامها في عمليات تهريب ما يكتبونه من تحليلات سياسية أو كتب أو روايات أو رسائل إلى الخارج. فهذه العمليات كانت هي الأخرى تحتاج لنقود سائلة. وكان المدرس في معظم الأحيان، يدخن سيجارته مع "تلاميذه" أثناء الحصة، أي أن كلا منهم يتناول منها عدة "أنفاس".

وعلى الرغم من علاقات الصداقة، أو على الأقل الزمالة، التي كانت تربط عادة بين المدرس وتلاميذه، إلا أن الحصص كانت تحكمها الجدية والنظام. فالجميع، مدرسين وتلاميذ، كانوا يحرصون على أن يفيدوا أكبر فائدة من الوقت المتاح لهم لتلقي الدروس، بحيث لا يضيعوا ولو عدة دقائق من وقت الحصة فيما لا طائل منه.

كان هناك فصلان للزملاء الذين لا يعرفون أي شيء عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، فكان التعليم فيهما يبدأ بالحروف الأبجدية. وكان معظم تلاميذ هذين

الفصلين من الزملاء العمال والفلاحين. وعلى الرغم من صعوبة تعلم لغة أجنبية على رجال أصابت الكهولة بعضهم، إلا أن الرغبة الشديدة في التعلم كانت تتغلب، وكان تلاميذ ذلك الفصل يتقدمون بمعدلات كانت تدهش المدرسين أحيانا. ولم يكن هذا التقدم بكل تأكيد بنفس المعدل عند جميع التلاميذ، فقد كان بعضهم يتقدم بصورة أسرع من زملائه. لكن المدرس كان يحاول دائما أن يساعد من يتخلف خارج مواعيد الدروس حتى يلحق بالباقين. وأظن أن عدد الذين توقفوا عن متابعة الدروس يأسا خلال عمر الجامعة، أي لمدة أكثر من عامين، لم يتجاوز اثنين أو ثلاثة أشخاص على أكثر تقدير.

وأما المستوى الثاني من تدريس اللغات، فكان لمن نالوا قسطا من التعليم في المدارس الثانوية، (أي من كانت إحدى اللغتين هي اللغة الأجنبية الثانية أثناء دراسته) لكن مستواهم في اللغتين متواضع. وكان التدريس في هذين الفصلين بالطبع أعلى مستوى بصورة واضحة من الفصلين الأولين. وما قيل عن أسلوب التدريس في المستوى الأول يصدق أيضا على هذا المستوى الثاني، لكن أحدا من تلاميذ هذا المستوى لم يتوقف عن تلقي الدروس يأسا من إمكان متابعتها.

ولما لم يكن المسجونون والمعتقلون يملكون كتبا للتدريس، فقد كان المدرس لهذا المستوى الثاني يختار – عادة – إما قصيدة شعرية بسيطة يحفظها، أو نصا سهلا من أحد الكتب السياسية أو الأدبية (روايات وقصص قصيرة ومسرحيات) التي كان لدينا منها الشيء الكثير، لتكون مادة الدرس. ويعتمد المدرس على معلوماته الخاصة، وعلى النص الذي يقوم بتدريسه، لشرح القواعد اللغوية.

أذكر مثلا أن القصيدة التي بدأت بها دروس اللغة الفرنسية في الفصل

الثاني، كانت قصيدة جميلة للشاعر الفرنسي جاك بريفير بعنوان "أوراق الخريف"، وقد غناها في منتصف الخمسينات كل من إيف مونتان و جولييت جريكو (وهما من الفنانين الفرنسيين الذين كانوا من بين من يحتلون القمة في الخمسينات والستينات). وانتشرت هذه الأغنية في العالم كله انتشار النار في الهشيم، وترجمت كلماتها إلى الإنجليزية وغناها أكثر من مطرب أمريكي وعلى رأسهم فرانك سيناترا. وكان يندر أن تجد في أي مكان في العالم، من شمال إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، شخصا يجيد الإنجليزية أو الفرنسية، ولا يحفظ كلمات هذه القصيدة ولحنها. لكن مدرس اللغة الفرنسية في جامعة الشهيد شعبان حافظ لم يكن يغنيها لتلاميذه بالطبع..

أما المستوى الثالث "الرفيع" فقد كان تلاميذه ممن يجيدون إحدى اللغتين، لكنهم لم يتعمقوا في دراسة آدابها، أي من كانت إحدى اللغتين هي اللغة الأجنبية الأولى أثناء دراستهم الثانوية، لكنهم توقفوا عن دراستها في الجامعة. وهؤلاء كانوا يدرسون الجانب المعقد من قواعد اللغة، وتاريخ الأدب الإنجليزي والفرنسي بشيء من التعمق. كما كان المدرسان اللذان يقومان بتدريسهم يطلبان منهم كتابة أبحاث، مع توجيههم إلى المراجع التي يمكنهم الاستعانة بها والموجودة في السجن، ومنها كتب تتناول بشكل مباشر تاريخ آداب اللغة، أو مقدمات كتب أدبية تتناول حقبة بعينها. وكانت كتابة الأبحاث فرصة هامة لمساعدة تلاميذ هذين الفصلين على التمرس على استخدام اللغتين في التعبير كتابة عن أفكار معقدة، بأسلوب سلس جميل، وعلى محاولة التفكير باللغة التي يكتبون بها، بدلا من التفكير باللغة العربية ثم محاولة ترجمة الأفكار إلى اللغة الأجنبية. فتلك هي أهم خطوة يجب على من يريد إجادة لغة أجنبية، أن يخطوها لكي يستطيع التعبير عن

نفسه تعبيرا سليما بتلك اللغة. أما كتب الأدب الرفيع التي كان المدرس "يقررهـــا" على التلاميذ لقراءتها أو كتابة أبحاث عنها، فكانت متوفرة، ولم تكن ثمة مشـــكلة في هذا الصدد.

وعلى أية حال، فقد كان المدرسون في كافة المستويات يعطـــون للتلاميـــذ واجبات عليهم حلها فيما بين الحصتين، ويقوم المدرس بتصحيح هذه الواجبـــات والتعليق عليها في الحصة التالية.

وكان هناك أيضا فصل للرياضيات لمن يرغب في تعميق معلوماته في هـــذا المجال. وكان الجبر له الأولوية حسب رغبة الدارسين، فكان الطلبة يتعلمون كيف يحلون المعادلات ذات المجهولين أو المجهولات الثلاثة مثلا، بالإضافة إلى الفروع الأخرى من علم الرياضيات. وكثيرا ما كنت ترى زميلا قد انزوى في ركن، وهـــو يسود صفحات وصفحات من الحـــروف وإشـــارات الجمـــع والطـــرح والضـــرب والقسمة، لكي يمزقها بعد مضي ساعات، ليبدأ من جديد، وكأنه يســـتعد لدخـــول امتحان عسير. لكنه نادرا ما كان يصاب باليأس من التوصل إلى الحل الصحيـــح. وإذا ما توصل إليه، كان يصيح فرحا، وكأنه توصل إلى اكتشاف نظرية النسبية..

لكن كان هناك أيضا مستوى رفيعا للرياضيات. وكان أستاذ هذا الفصل هـــو الدكتور عبد العظيم أنيس، أستاذ الرياضة البحتة، والذي كـــان ــ عندمـــا وقـــع العدوان الثلاثي ضد مصر عام ١٩٥٦ ــ أستاذا مساعدا للرياضيات في جامعـــة لندن بإنجلترا، لكنه ترك منصبه هناك احتجاجا على العدوان، ونظم مظاهرات فـــي لندن لإدانة العدوان قبل عودته لمصر، حيث عين أستاذا للرياضة البحتـــة بكليـــة العلوم بجامعة القاهرة.

وكان طلبة هذا المستوى الرفيع جدا، اثنان لا ثالث لهما، وهما الدكتور فائق فريد، أستاذ مساعد الإلكترونيات بجامعة عين شمس (عند إلقاء القبض عليه)، والأستاذ محمد سيد أحمد (الكاتب السياسي بجريدة الأهرام حاليا)، وهو خريج كلية الهندسة.

والدكتور عبد العظيم أنيس حاصل على "دكتوراه العلوم (D.SC) في الرياضة البحتة" من جامعة لندن. وعندما حصل عليها، كان هناك - بالإضافة إليه- أحد عشر شخصا في العالم كله، استطاعوا الحصول على هذه الدرجة العلمية الرفيعة في هذا الفرع، على رأسهم ألبرت أينشتاين. لذلك فقد تم تعيينه فورا للتدريس بالجامعة المذكورة. وبعد أن أفرج عنه في عام ١٩٦٤، أرسلت له أكثر من ست جامعات أمريكية عروضا للعمل بها، على الرغم من أن دخول أي شخص يشك أن له ميولا شيوعية، أو له قريب من الدرجة الثانية له نفس الميول، إلى الولايات المتحدة في ذلك الوقت كان من رابع المستحيلات.

كذلك كان أحد الزملاء قد تخرج في مدرسة الدومبوسكو الصناعية، وكان يجيد اللغة الإيطالية. وقد عرض خدماته، لكن واحدا فقط أبدى رغبته في تعلم تلك اللغة. لذلك كان يعطيه درسا خاصا في الوقت الذي يناسبهما، غير متقيدين بموعد الدراسة في باقي الفصول.

وربما كان من الملائم الآن أن نحاول أن نرى النتائج العملية لكل هذا النشاط. ولا أستطيع بكل أسف أن أعرف مسار معظم الزملاء بعد الخروج من السجن، لذلك فإنني سأكتفي ببعض الأمثلة التي أعرفها.

فهناك أولا زميل كان قد تخرج من معهد صناعي متوسط، وكان ـــ عند إلقاء القبض عليه ـــ يعمل ميكانيكيا. وكان يعرف شيئا من اللغة الإنجليزية. لكنه

أتقنها في السجن، بل وتعلم الفرنسية أيضا. وقرأ كمية هائلة من كتب الفلسفة باللغتين، وتخصص بالتحديد في الفلسفة الألمانية. واهتم كذلك بكتب تبسيط العلوم، حتى أنه صار خبيرا في هذا المجال، بحيث تم تعيينه ــ بعد خروجه من السجن ــ محررا علميا في إحدى الصحف الكبرى قبل أن يصير رئيس القسم العلمي في تلك الجريدة.

وهناك زميل آخر كان يجيد الإنجليزية، لكن معرفته باللغة الفرنسية كانت متواضعة. وقد أصبح الآن من رجال الأعمال المرموقين، يتفاوض مع بعض من يتعامل معهم من الأجانب بالفرنسية بسهولة تامة، حتى أنهم كثيرا ما يثنون على لغته الفرنسية، ويسألونه كيف أجادها إلى هذا الحد.

وبصورة عامة، أتاحت جامعة الشهيد شعبان حافظ الفرصة لعدد كبير من الزملاء أن يقرءوا بلغات لم يكونوا يعرفونها، كثيرا من الأعمال الأدبية والثقافية، التي لم يكن من الممكن لهم أن يقرؤها بتلك اللغات لو لم يحضروا دروس جامعة الشهيد شعبان حافظ، وذلك سواء في السجن أم بعد خروجهم لعالم الحرية.

المحاضرات العامة والصراع السياسي

بالإضافة إلى هذه الدراسة المنتظمة، كانت هناك محاضرات عامة، وبصفة خاصة في الاقتصاد. وكان يلقي هذه المحاضرات الدكاترة (المرحوم) فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله وفوزي منصور، وهم بالطبع، وكما هو معروف، كانوا أساتذة الاقتصاد السياسي في الجامعات المصرية. وكان المحاضرون يجيبون على أسئلة المستمعين بعد انتهاء المحاضرات، وتجري مناقشات مفيدة، سواء بين المحاضر والمستمعين، أو بين المستمعين أنفسهم. وفي الختام، يعلق المحاضر على هذه المناقشات.

ولعل أهمية محاضرات الاقتصاد لم تكن ترجع فقط إلى مستوى المحاضرين المرتفع وتمكنهم من مادتهم، وإنما أيضا إلى أن الاقتصاد يشكل أحد الأعمدة الهامة جدا التي تقوم عليها الماركسية، إلى جانب الفلسفة. وإذا كانت دراسة الفلسفة، على الرغم من صعوبتها، يمكن لمن يتمتع بقدر من الثقافة أن يتعمق فيها بمجهوده الفردي بلا مساعدة تقريبا، فإن دراسة الاقتصاد، على العكس من ذلك، دراسة معقدة. فهي علم له قواعد وأسس يجب الإلمام بها وفهمها، بل وهضمها، قبل أن يغامر الإنسان في الدخول في تفصيلات الكتابات الاقتصادية المتعمقة. لذلك كانت هذه المحاضرات دائما مكتظة بالمستمعين، الذين كانوا يتابعونها بانتظام شديد وبتركيز فائق.

كما ألقيت مجموعة من المحاضرات الشيقة في تاريخ الفلسفة، منذ نشأة الفكر الإنساني، مرورا بالفلسفة اليونانية، ثم بالفلسفة العربية في مختلف

مراحلها، ثم فلسفة عصر النهضة الأوربية إلى الفلاسفة المحدثين. وقــد حظيــت هذه المحاضرات أيضا بعدد كبير من المستمعين.

وكانت هناك أيضا محاضرات عامة سياسية، لكنها لم تكن منتظمـــة، إذ أن كل تنظيم كان ينظم محاضرات سياسية لأعضائه فقط، لشرح وجهة نظـــر قيـــادة التنظيم ومناقشتها. لكن، كان يحدث أحيانا أن يرغب أحد الزمـــلاء فـــي عـــرض وجهة نظره في مسألة سياسية على كافة المسجونين والمعتقلين، لذلك كان يدعو الكافة إلى محاضرة عامة. ولم يكن ذلك يقتصر على الشيوعيين فقط، بل إن كثيرا من المستقلين كانوا يلقون محاضرات ليعبروا عن آرائهم السياسية أو للحديث في موضوع آخر يعنيهم. وكانت معظم هذه المحاضرات تحظى باهتمام عدد كبير مـــن الزملاء.

بالإضافة إلى المحاضرات، كانت هناك ندوات "للصراع السياسي".

والصراع السياسي هو أسلوب تبادل الآراء وإجراء تصويب أو تعديل الخـط السياسي للأحزاب الشيوعية. والمفروض أنه لا يكون "مفتوحا" طول الوقت، بـــل إنه يتقرر فتحه قبل مؤتمر الحزب بفترة شهرين أو ثلاثة، ويشترك فيه جميع من يرغب في ذلك من الأعضاء. وخلال فترة الصراع السياسي، يدافع كل عضو عـــن رأيه الشخصي، مهما كان اختلافه مع خط الحزب. ففي غـــير أوقـــات التحضـــير لمؤتمر الحزب، لا يجوز للعضو أن يقول رأيه الخاص إلا داخل اللجنة التي ينتمي إليها. فدوره هو أن يدافع عن خط الحزب السياسي، سواء مع الأعضــــاء الذيـــن يكون هو المسئول عنهم أو لمن ليسوا أعضاء في الحزب، أيا كان رأيه الشخصي في هذا الخط، أي حتى لو كان معارضا له. وتسمى هذه القـــاعدة فـــي الأحـــزاب الشيوعية "المركزية الديموقراطية". أما أثناء فتح باب الصراع تحضيرا للمؤتمـــر،

فإن العضو يعبر في اجتماعات الصراع التي يحضرها عدد كبير من الأعضاء، عن رأيه الشخصي بحرية تامة. والمفروض ــ نظريا ــ أن ينعقد مؤتمر الحزب مـرة كل أربع سنوات، لكن قد تستدعي ظروف استثنائية عقد مؤتمر طارئ. وقد جرت العادة في الأحزاب الشيوعية أن ينتهي المؤتمر بإقرار الخط السياسـي للحـزب، سواء باستمرار الخط السياسي القديم أو بتعديلـه، وانتخـاب أعضـاء اللجنـة المركزية للفترة التي تفصل بين مؤتمرين.

كل ما سبق هو المفروض نظريا. لكن الواقع في مصر كان غير ذلك. فقـد كانت قيادات التنظيمات الشيوعية تتعلل عادة بأسباب أمنية لعدم عقـد المؤتمـر العادي، وتكتفي القيادة بتغيير خط التنظيم كما يحلو لها كلما ارتأت ذلـك، بـدون الرجوع إلى الأعضاء، ويظل أعضاء اللجنة المركزية في أماكنـهم دون تغيـير. ولعل ذلك كان أحد الأسباب الهامة التي أدت إلى الانقسامات التي عرفتها الحركـة الشيوعية المصرية، والتي أدت إلى أن يكون في مصر نحو خمسة عشر تنظيمـا في آن واحد، وذلك في منتصف الخمسينات.

أما في السجن، فإن التعلل بأسباب أمنية لعدم عقد مؤتمر التنظيم، لا يمكـن أن يكون أمرا جادا. لذلك فقد تم فتح باب الصراع السياسي للتنظيمين الكبـيرين (كل على حدة بالطبع) عام ١٩٦٢ تمهيدا لعقد المؤتمرين.

ومن أجل تنظيم الصراع السياسي، كانت تعقد ندوات في طرقة العنبر، نظرا لأن زنزانة واحدة كان من الصعب أن تستوعب عدد من يشاركون في المناقشات. وإذا كان من المفروض ألا يحضر ندوات الصراع السياسي غير أعضاء التنظيـم، فإن ظروف السجن كانت تجعل ذلك شبه مستحيل. لذلك كان يمكن لأي معتقـل أو مسجون أن يحضر. وكان الزملاء أول الأمر يحترمون بعض القواعد، فلـم يكـن

يشارك بإبداء الرأي غير أعضاء التنظيم الذي يدور الصراع السياسي حول خطه، لكن، نظرا لأن كل شيء كان يحدث علنا وأمام الجميع، فقد تم تجاوز القواعـــد، وشارك أعضاء من تنظيمات غير ذلك الذي ينظم الصراع فـــي المناقشـــات، بـــل وأدلى عدد من المستقلين بدلوهم أيضا.

وبهذه المناسبة، نشير إلى أن الصراع السياسي الذي تم فتح بابه في سجن الواحات الخارجة، لم يغير أي شيء، ولم ينتهي ــ كما هو المفروض ــ بانتخاب أعضاء القيادة، بل ظلت القيادة في مكانها كما هي، ولم يغير أي شخص رأيه.

والمفروض أن الخط السياسي للحزب الشيوعي في أي بلـــد كـــان، يحـــدد موقف الحزب من قضايا البلد، بصرف النظر عن موقف القوى الأخرى الموجـودة على الساحة السياسية، وتتحدد العلاقة بهذه القوى ــ من تحالف أو عداء ــ بناء على خط الحزب. أما في مصر، فإن خط الحزب كان يتحـــدد دائمـــا بنـــاء علـــى الموقف من الحكومة، أي هل نعارض الحكومة أم نؤيدها؟! لذلك فشلت التنظيمات الشيوعية في مصر في أن يكون لها خط سياسي متميز خاص بها، يكون نبراســا لعملها السياسي الجماهيري، وظلت هامشية في الحقل السياسي، وإن كان تأثيرها الثقافي كبيرا جدا، نظرا لأنها كانت تضم في صفوفها عددا من ألمع مثقفي مصر.

وكانت المحاضرات العامة تتم عادة في طرقة العنبر، إذ لم تكـــن زنزانـــة واحدة تكفي لاستيعاب عدد المستمعين، وبصفة خاصة في حالة محاضرات أساتذة الاقتصاد.

وقد يتساءل قارئ عن موقف إدارة السجن من كل ذلك النشاط. والواقـع أن إدارة السجن كانت في السنتين الأوليين (١٩٥٩ و ١٩٦٠) تغلق أبواب الزنــازين طول اليوم، ولا تسمح بالخروج منها إلا نصف ساعة في الصباح ومثلـــها بعـــد

الظهر، باستثناء الفترة التي قررت فيها ــ على مــا يبــدو ــ المبــاحث العامــة بالاتفاق مع إدارة مصلحة السجون أن نشترك "في تعمير الوادي الجديد".

جرت بداية هذه "العملية" تحت إشراف اللــــواء إســماعيل همــت، وكيــل المصلحة آنذاك، بإخراج جدير بمريض نفسي. وتم خلالها ضرب جميع المعتقليــن ضربا مبرحا بجريد النخل، كما تم جلد عدد منهم عراة تماما من أية ملابس، بينما إسماعيل همت وهو يرتدي ملابسه الرسمية، ويجلس وسط رمال الصحراء، أمــلم مائدة غطيت بمفرش أخضر اللون، يحيط به حرس شرف بملابــــس التشــريفة، وسلاح أعضائه مشرع وكأنهم يستعدون للقتال. وقد سالت دماء كثيرة فـــي هــذا اليوم، وحدثت كسور في عظام سبعة من الزملاء، منهم (المرحوم) علي الشريف.

بعد هذه المسرحية الهزلية، كان المعتقلون (وليس المسجونون) يخرجــون في الساعة السابعة صباحا في طوابير يحيط بها السجانة، إلى "موقـــع العمــل". وعلى الرغم من أن الموقع لم يكن يصلح لأي شـــيء، إلا أن المعتقليــن كــانوا يحفرون الأرض لشق ترع، تمهيدا، كما كان الضباط يقولون، لوصول المياه (التي لم تصل أبدا بالطبع). وفي الأيام الأولى كانت الظروف قاسية. فالمعتقلون لا يكــاد يستر أجسادهم إلا قليل من ملابس السجن الخشنة، حفاة الأقــدام، تحــت درجــة حرارة لا تزيد عن ست أو سبع درجات عند بدأ العمل (فقد كــان الفصــل فصــل الشتاء)، ترتفع إلى ما يقرب من ثلاثين درجة عنــد الظــهر. وكــانت العقــارب والثعابين السامة (ومنها الدفان والطريشة) ترتع من حولهم، لكنها تهرب بــالطبع نتيجة لوجود عدد كبير من الناس. وإذا كان واحد فقط من الزمـــلاء قــد لدغــه عقرب خلال هذه الفترة، وأنقذه الدكتور حمزة البسيوني من الموت، وآخــر كــاد ثعبان أن يلدغه، فتلك معجزة غريبة ليس لها تفسير منطقي.

وكانت أوامر إسماعيل همت تقضي بأن يتم العمل تحت وطأة هراوات السجانة. لكن ضباط السجن، إحقاقا للحق، رفضوا تطبيق هذا النظام بعد رحيل همت (منذ بعد ظهر اليوم الثاني)، وكانوا ينهرون السجانة إذا ضربوا معتقلا.

وكان السجانة يأخذون موضوع العمل مأخذا جديا خلال الشهور الثلاثة الأولى، فلا يسمحون لأحد من المعتقلين بالراحة. لكن، بمضي الوقت، ونظرا لأنهم أدركوا أن هذا العمل ليس مجديا، بدأ التراخي بالتدريج، حتى أصبحت ساعات الراحة أكثر من ساعات "العمل". وكان المعتقلون يتجمعون في حلقات مناقشة فيما بينهم أو مع السجانة ذاتهم. ولم تكن المناقشات الفردية هذه تتعلق في معظم الأحيان بأمور سياسية، بل كان الزملاء يتبادلون الذكريات الخاصة المتعلقة بحياتهم قبل دخول السجن، فالسجن بالنسبة للمسجون هو مجرد قوس فتح في سجل حياته، يريد أن يتجاوزه، ويتعلق تعلقا شديدا بحياته قبله. لقد توقفت حياته لفترة، ولا يشغل باله خلالها إلا حياته السابقة عليها. كذلك كان الزملاء يفتحون قلوبهم لأصدقائهم بما تزخر به من أحاسيس ومن تطلعات إلى المستقبل، الذي كان يبدو ساعتها بعيدا وغير مؤكد. لكن الإنسان يعيش دائما على الأمل في تحقيق أحلامه. وليس من الغريب أن بعض ما كان يتطلع إليه عدد من الزملاء من مشروعات خاصة أو عامة، قد تحقق بعد سنوات، بل وحقق الكثيرون منهم ما لم يتخيلوا في ذلك الوقت أن يحققوه.

وهكذا، أصبح العمل مجالا للبقاء لأطول مدة ممكنة في الهواء الطلق بدلا من البقاء داخل أربعة جدران في الزنازين.

وأحب هنا أن أشير إلى أمر يوضح طبيعة الشعب المصري الأصيلة. فقد منع إسماعيل همت عن المعتقلين التعامل مع كانتين السجن. وكان معنى ذلك حرمان المدخنين من السجائر. وكان السجانة كثيرا ما يشترون – من مرتباتهم

الضئيلة ــ علبا من السجائر، يوزعونها على المعتقلين إشفاقا منهم، على الرغم من أنهم كانوا ساخطين علينا، ويرددون دائما أن الشيوعيين لا يحمدون الله على ما هم فيه من نعمة (خاصة وأنهم كانوا يدهشون عندما يعرفوا مكانة البعض الاجتماعية)، ويقولون "ألا يكفيكم ما أنتم فيه؟ تريدون أن تصبحوا وزراء؟!!". كانت تضحيتهم إذن كبيرة جدا.

وكان نصيب المدخن في مثل هذه الحالة، عدة أنفاس فقط من إحدى السجائر مرة كل أسبوع أو أسبوعين..

وقد أتاح هذا "العمل" (وكانت إدارة السجن تطلق هذه التسمية التي كانت بعيدة كل البعد عن الحقيقة، على هذه العملية، شأنها شأن البيروقراطية المصرية دائما منذ قديم الأزل، تسجل في دفاترها الأمور كما ينبغي أن تكون من وجهة نظرها، وليس المهم مطلقا أن يكون ما تسجله قريبا، ولو من بعيد، إلى الحقيقة)، أتاح إذن الخروج إلى مناطق قريبة من واحة صغيرة تسمي "المحاريق" للمعتقلين أن يلتقوا مع سكان هذه الواحة، وأن يتبادلوا أحاديث سريعة معهم. وقد اتضح من هذه الأحاديث أن أهالي المحاريق يحسدون المعتقلين الذين "ينامون في غرف مبنية من الطوب، ويتناولون العسل في طعام إفطارهم"، كما كانوا يقولون. وكانوا يطلقون على السجن اسم "القصر". ولم يكن من الممكن لهم أن يتصوروا أن سكان "القصر" يتحرقون شوقا إلى عالم الحرية الذي يعيش فيه سكان الواحة، بدون أن يدركوا قيمة ما يتمتعون به.

لكن أهل الواحة، على الرغم من الحرية، كانوا في حالة يرثى لها. وأذكر أننا رأينا مرة امرأة تبدو عجوزا إلى حد بعيد جدا، مقوسة الظهر، وقد غطى الشعر الأبيض رأسها، وقد جلست فوق ظهر حمار يقوده شاب ويسير بجوارها

شيخ متهالك. وأخبرنا الشاب أنه وأبوه يصحبان أمه المريضة إلى طبيب الوحدة الصحية في الخارجة (عاصمة الواحة) التي تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات. وعندما استفسرنا عما تشكو منه قال إنه السن، فهي قد تجاوزت الأربعين من عمرها!.. وردا على أسئلتنا قال إن معظم أهالي الواحة لا يصلون إلى سن الأربعين..

وقد قال الزملاء الأطباء إن أهالي هذه المناطق ينقصهم اليود بصورة غير طبيعية، فمعظمهم يعانون من تضخم الغدة الدرقية. وسأل أحد الزملاء مرة فلاحا من الواحة إذا لم يكن هناك أسماك في المنطقة، فأجابه الرجل : "إن الإصلاح الزراعي سيحضر لنا تقاوي منها في القريب العاجل!"

وقد أسعدني أن رأيت برنامجا في التليفزيون الفرنسي منذ نحو أربع سنوات استغرق ساعة ونصف الساعة عن "الوادي الجديد" أي الواحات الخارجة، شاهدت فيه القرى الجديدة ونشاط أهلها، الذين يزرعون منتجات كثيرة تصدر إلى فرنسا بصفة خاصة. وقد أشاد البرنامج بما تم إنجازه خلال أربعين عاما، بحيث أصبح الوادي الجديد واحة يعيش أهاليه في العصور الحديثة بعد أن كانوا في معزل تام عن العالم. كما أسعدني أن فتاة من فتيات الواحة قد فازت بجائزة الشعر التي نظمتها مجلة "أخبار الأدب" عام ١٩٩٩.

واستمر الوضع على هذا الحال، حتى أصبح "العمل" هو آخر ما يفكر فيه السجانون والمعتقلون، إلى أن اقترح بعض الزملاء من المهندسين الزراعيين، وعلى رأسهم الزميل عبد المنعم شتلة، على إدارة السجن، القيام بعمل مفيد بدلا من تضييع الوقت بما لا طائل منه. وكان الاقتراح هو أن ينشأ المعتقلون مزرعة حقيقية في مكان آخر تماما، بالقرب من المضخة الكبيرة التي تزود السجن ومساكن السجانة والضباط، بالماء من المياه الجوفية. ووافقت الإدارة على ذلك.

وهكذا تم استصلاح نحو سبعة أفدنة (بالتدريج بالطبع) وسط رمال الصحراء القاحلة، زرعت فيها أنواع عديدة من الخضروات، مثل القوطة والباذلاء والبامية والخيار والكوسة والباذنجان وغيرها، بالإضافة إلى أنواع من الفاكهة، وبصفة خاصة البطيخ والشمام. وكان الناتج من هذه الخضروات والفواكه من أصناف جيدة جدا، نظرا للعناية الكبيرة التي كان الزرع يلقاها. وأصبح السجن يكتفي ذاتيا أول الأمر، ثم أصبحت تلك المزرعة تورد الخضروات إلى باقي السجون المصرية، حتى أنها كادت تغطي احتياجات جميع سجون مصر منها. وقد أرسلت مصلحة السجون خطاب شكر حار لمأمور السجن على ذلك الإنتاج، الذي وفر جزءا هاما من ميزانية المصلحة. وكانت سعادة المأمور بهذا الخطاب كبيرة جدا.

وقد احتاج الاستصلاح أول الأمر جهود معظم المعتقلين. لكنهم كانوا يعملون بحماسة بالغة في ظروف مختلفة تماما، إذ أنهم كانوا أمام تحد هام لكي ينجح المشروع. وأصبح السجانة مجرد متفرجين، بينما كان يوجه العمل ويشرف عليه بالفعل الزملاء المهندسون الزراعيون. لكن، بعد عملية الاستصلاح الأولى، أصبح العمل لا يحتاج سوى لمجهود أقل من عشرين شخصا. وهكذا كان الآخرون يجلسون في ظلال بعض الأشجار، يقرأون أو يكتبون أو يزاولون ما يحلو لهم من نشاط. بل إن عملية الري احتاجت لإنشاء حوض كبير تتجمع فيه المياه لتوزيعها على الأرض المستصلحة. وتحول هذا الحوض إلى حمام سباحة، كان المعتقلون والمسجونون يسبحون فيه. لكن هذا الحوض لم يكن بالطبع مبطنا بالسيراميك، فقاعه وجدرانه كانت من الصلصال والطين، قام المعتقلون والمسجونون بعد ذلك "بتدبيش" جوانبه، أي بتبطينها بالدبش، لكنه على أية حال كان فرصة لممارسة هواية السباحة.

وإزاء هذا النجاح ورضاء مصلحة السجون، أصبح باب السجن مفتوحا بصفة دائمة. فكان المعتقلون يخرجون من السجن متجهين نحو المزرعة في أي وقت يشاءون، من الصباح الباكر وحتى غروب الشمس. وبالطبع، أصبحت الزنازين لا تغلق أبوابها إلا عند الغروب. وبالتدريج، أصبحت لا تغلق ليلا أو نهارا، وإنما تكتفي إدارة السجن بإغلاق باب العنبر فقط عند الغروب.

ولم يكن هذا الوضع يشكل أي خطر بالنسبة لإدارة السجن. فسجن الواحات كان في مكان منعزل تماما، وأقرب مكان مأهول له هو الواحة الخارجة، التي كانت تبعد بنحو عشرة كيلومترات. وسكان الواحة معروفون تماما، سواء بزيهم أو بطباعهم، وكان من الممكن التعرف على أي غريب يسير في شوارع الواحة الخارجة في ثوان معدودات. أما الوادي، فكان الطريق الوحيد إليه هو طريق صحراوي يصل إلى أسيوط. والمسافة بين الواحة وأسيوط تبلغ نحو ثلاثمائة كيلومتر. كان من يفكر في الهرب إذن ليس له أي أمل في الابتعاد عن السجن كثيرا قبل أن يكتشف أمره، اللهم إلا بمعاونة هائلة من الخارج.

وقد تحقق هرب زميلين في أوائل عام ١٩٦٤، لكنهما حظيا بمساعدة من الخارج، متمثلة – كما قيل فيما بعد – في بعثة فرنسية للبحث عن الآثار في المنطقة. ولولا أن باقي المسجونين اضطروا (لأسباب تتعلق بتأمين كتبهم وأوراقهم الحزبية والترانزستورات التي كانوا يتابعون بها أخبار العالم كما سيأتي) إلى إخفاء نبأ هروبهما عن الإدارة لمدة ثمان وأربعين ساعة، لكان في الإمكان إلقاء القبض عليهما بسرعة.

وهكذا، بحلول أواخر عام ١٩٦١ أو أوائل ١٩٦٢ أصبح السجن مجرد منفى مفتوح. ومن هنا أصبح من الممكن تنظيم الحياة داخله بصورة يتحكم فيها

المعتقلون والمسجونون تحكما تاما، تحت نظر الإدارة بالطبع، التي كانت تتغاضى عن كل ما يحدث، طالما أن حالة السجن مستقرة وأن الهدوء يسوده.

وإلى جانب هذا النشاط العام لكل المعتقلين والمسجونين، كان هناك بـــالطبع النشاط الحزبي. فكل تنظيم كان يعقد ـــ إلى جانب الاجتماعات الحزبية، التي لـــم تتوقف تحت ظل أية ظروف، حتى أقساها ـــ دورات تثقيفية لأعضائه لشرح خـــط الحزب السياسي، وأساليب العمل الجماهيري، وغير ذلك من عمليات التثقيف. لكن هذا النوع من النشاط كان يقتصر بالطبع على أعضاء التنظيم وحدهم.

وكان هناك أيضا نشاط الترجمة والنسخ. فكان الزمـــلاء المتمكنـــون مـــن اللغات الأجنبية يقومون بترجمة الكتب السياسية والفلسفية الهامـــة إلـــى اللغـــة العربية، ويقوم آخرون بنسخ عدد من النسخ بخط جميل غالبا، ثم يتـــم جمعـــها وتجليدها في كتيبات حتى يطلع عليها أكبر عدد من الزملاء. وكـــانت التنظيمـــات المختلفة تقوم بهذا العمل، لكن هذه الكتيبات كان يتم إعارتها لكل مـــن يطلبـــها، بموافقة الزميل المسئول عن المكتبة في التنظيم. وبعض هذه الكتيبـــات لا يـــزال موجودا حتى الآن.

ومن أبرز من قاموا بترجمة أكبر عدد من هـــذه الكتـــب، الزميـــل محمـــد مستجير. ولدي حتى الآن أحد هذه الكتب المخطوطة من ترجمته. وقد عمل محمد مستجير بعد عدة سنوات مترجما بالأمم المتحدة في جنيف حتى بلغ سن المعاش. وعلى الرغم من ذلك، فالمنظمة الدولية ووكالاتها المتخصصة لا زالت حتى اليـوم تستعين بخبرته.

وعندما كانت الظروف لا تسمح بأن يكون هذا العمل شـــبه علنـــي، كـــانت الترجمة والنسخ يتمان بالقلم الكوبيا على ورق "البفرة" الشديد الرقة، الذي يتـــم فيه لف الدخان عادة، ويتم تدبيسها وعمل غلاف لها، يزيـــن أحيانـــا بالرســـوم

الجميلة الدقيقة، حتى تصبح كتيبات صغيرة تختفي في الكف. وكانت كتابة هذه الكتيبات تمثل بعض الصعوبة بالطبع، فالقلم الكوبيا يجب أن يكون سنه رفيعا لأقصى درجة ممكنة، بحيث يجب إعادة بريه كل بضع صفحات، كما يجب أن يحرص الناسخ حرصا شديدا حتى لا يتمزق الورق الرقيق جدا عند الكتابة. كذلك كانت قراءته أيضا صعبة، لأن حروفه تدق حتى تصبح مثل المنمنمات. لكن كل شيء يهون في سبيل أن يثقف الإنسان نفسه. وكانت أوراق البفرة تستخدم أيضا لتهريب الرسائل إلى العائلات. صحيح أن المسجونين ــ وليس المعتقلين ــ كان لهم الحق في إرسال رسالة إلى ذويهم مرة كل خمسة عشر يوما، لكن هذه الرسائل كانت تخضع لرقابة إدارة السجن والمباحث العامة، لذلك فهي كانت رسائل "رسمية"، ولم يكن المسجون يشعر بالحرية أثناء كتابتها، فربما كانت هناك أمور يريد أن يتحدث عنها لا يريد أن يطلع عليها أحد. كذلك فإن المعتقلين لم يكن لهم حق إرسال خطابات أو تلقي الزيارات، ولم يكن من المعقول أن يظل ذووهم بدون أي أخبار عنهم طوال سنوات. لذا فقد كان لا بد من تهريب الرسائل لخارج السجن. وكانت كتابتها على ورق البفرة هي أفضل طريقة لتهريبها بسهولة. وهكذا، تم تدريب عائلات المسجونين أيضا على قراءة الرسائل المكتوبة على ورق البفرة، بل وعلى الكتابة عليه أيضا!

وكان كثيرون من المعتقلين والمسجونين يؤلفون أعمالا في مختلف المجالات بالطبع. وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد، لكن يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن أحد التنظيمات قد طلب من أعضائه الذين لهم خبرات بالعمل الجماهيري بكافة صوره، أن يكتبوا هذه الخبرات حتى يستفيد منها باقي زملائهم. وقد كون هذا التنظيم مكتبة هامة من هذه الأعمال، كانت تحت طلب جميع أعضاء التنظيم، بل وأحيانا كان أعضاء التنظيمات الأخرى يستعيرون بعضها.

واس

كانت المباحث العامة ــ ربما بأوامر أعلى منها ــ تمنع عــن المســجونين والمعتقلين جميع مصادر الأخبار، من صحف ومجلات وإذاعات. لذلك، فقد كــانوا لا يعرفون شيئا مما يحدث خارج السجن، سواء في مصر أو في العالم. وكـــانت مصادر الأخبار في عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ شحيحة جدا، تكاد تقتصر علـــى مــا يعرفه المسجونون من عائلاتهم أثناء الزيارات الرسمية المسموح لهم بها. أمـــا المعتقلون، فلم يكن لهم حق الزيارات. وكان بعض الضبــاط أو الســجانة يقــول أحيانا خبرا ما. لكن أخبارهم كانت تؤخذ بتحفظ شــديد دائمــا، نظــرا لمســتوى السجانة الثقافي من جهة، ولأن الخبر ربما يكون مدسوسا بهدف ما مـــن جهــة أخرى.

وكانت تحدث أحيانا مصادفات سعيدة تنقل خبرا هاما. أذكر مثـــلا أن أحــد المعتقلين عثر مرة في فناء السجن على قصاصة من جريدة الأهرام، اســـتخدمت غالبا في تغليف شيء ما، تم فكه في الإدارة، ثم ألقيت القصاصة، فحملها الــهواء وألقى بها إلى فناء السجن. وقرأ المسجونون والمعتقلون في هذه القصاصة نبـــأ تأميم عدد من البنوك.

كان الخبر – على الرغم من أنه كان متأخرا لأكثر من أســـبوع – هــائلا. وبصرف النظر عما أثاره من مناقشات واجتماعات للقيادات السياســية لمحاولــة تحليله، ولنتيجة المناقشات والتحليلات، فقد لعبت المصادفة دورا كبيرا في وصول خبر كهذا للمسجونين والمعتقلين. اللهم إلا إذا كان إلقاء هذه القصاصـــة بــالذات

متعمدا من جانب الإدارة، لأنه يمكن أن يؤدي إلى أحداث بلبلة في أذهان المسجونين والمعتقلين، ويؤكد تحليلات البعض ويهدم تحليلات الآخرين من جذورها.

لذلك فقد كان الحصول على الأخبار أحد أهم ما يشغل بال الناس على كل المستويات.

وفي أوائل عام ١٩٦١، نجح زميل في تهريب أول جهاز ترانزيستور يدخل السجن. لكن ذلك تم بالطبع في تكتم شديد، فقد كان للمباحث العامة عيون بيننا. لذلك ظل الأمر سرا، لا يعرفه غير ساكني الزنزانة التي بها الترانزيستور وقيادة التنظيم الذي يتبعه الزميل. وكان هذا الجهاز لا يستخدم إلا لسماع نشرات الأخبار فقط، وفي تكتم شديد. فقد كان يتم تخفيض الصوت حتى لا يكاد يسمع، وينصت الزميل الذي عليه الاستماع إلى النشرة تحت بطانية يلتحف بها.

لكن قيادة التنظيم كانت تبلغ القيادات الأخرى بالأنباء الهامة جدا، قائلة لهم إنها حصلت عليها من "مصادرها الخاصة". لكن باطراد وصول الأخبار، لم يكن الاستنتاج عسيرا جدا. وبدأ كل تنظيم يسعى بدوره إلى تهريب جهاز ترانزيستور. وبعد بضع شهور، كان بالسجن عدد كبير من الأجهزة، حتى أن كل زنزانة من الزنازين الأربعين أصبح بها جهاز واحد على الأقل. ولم يكن من الممكن بالطبع إخفاء ذلك، وأصبح الأمر معروفا للكافة، حتى لإدارة السجن. لكن لم تكن الإدارة تستطيع شيئا، فعلى الرغم من التفتيش الدقيق للزنازين، لم يمكنها العثور على أي أثر لأجهزة الترانزيستور، التي كان يتم تأمينها في مخابئ لم تكن تخطر على البال طوال فترة فتح أبواب العنابر. وأستميح القارئ عذرا في عدم الاستطراد في الحديث عن المخابئ، فمن يدري ما تخبؤه الأيام للسياسيين!

وخطرت (للمرحوم) عبد الستار الطويلة فكرة، ألا وهي تنسيق الاستماع، بحيث يتم سماع أكبر عدد من نشرات الأخبار من مختلف المحطات، حتى تتجمع لديه نشرة كاملة للأنباء في الصباح، فقد كان الاستماع لا يتم إلا بعد إغلاق باب العنبر وإخراج الأجهزة من مخابئها.

واقتنعت القيادات بذلك الحل، وتم تفويض عبد الستار الطويلة بالقيام بهذا التنسيق، وبإعداد نشرة يومية تتلى على من يريد سماعها.

وقام الزميل بذلك العمل على خير وجه. فقد حدد لكل زنزانة محطة إذاعية معينة تستمع إلى نشرات أخبارها، ويقوم زميل سريع الكتابة بتدوين الأخبار أثناء تلاوتها. ويقوم عبد الستار الطويلة بتجميع كل ما تمت كتابته في الصباح الباكر بمجرد فتح أبواب الزنازين (أي بعد الساعة السابعة بقليل)، وينسقها، مستبعدا الأخبار المكررة، ومضيفا إلى بعضها – من نشرات أخرى – ما تكون قد أهملته من تفصيلات. وفي الساعة التاسعة والنصف، يمر زميلان في العنبرين ، ومنهم أحيانا عبد الستار الطويلة نفسه، مناديان (مثل المنادي العام في العصور الوسطي، قبل انتشار الصحف والراديو) بأن نشرة أخبار "واس" ستذاع بعد نصف ساعة مثلا، في طرقة العنبر. وأصبح من الأمور الطبيعية والمتوقعة أن نسمع في طرقة العنبر من يقول بصوت مرتفع "واس يا زملا.. واس يا زملا..". ويتجمع من يريدون سماع النشرة التي يتلوها عليهم عبد الستار الطويلة في الوقت والمكان اللذين يحددهما المنادي.

وقد أطلق بعض الزملاء تندرا على عبد الستار اسم "واس"، اختصارا، كما قالوا لـ "وكالة أنباء ستار"، وفي الوقت ذاته فهذه التسمية تقترب من اسم وكالة الأنباء السوفييتية "تاس". وقد ظل الزملاء جميعا طوال فترة السجن وما بعدها

ينادون عبد الستار الطويلة باسم "واس"، واشتهر بهذا الاسم حتى بين مـــن لـــم يدخلوا السجن، ولم يعيشوا أمجاد وكالة "واس".

وهكذا، كانت نشرة أخبار "واس" تضم كل الأخبار التي يذيعها راديو لنـــدن، وصوت أمريكا، وإذاعة فرنسا الدولية، وإذاعة موسكو وإذاعة الشـــرق الأدنـــى (البريطانية أيضا)، بل وحتى إذاعة بيكين، بالإضافة إلى عدد من الإذاعات العربية بالطبع، وعلى رأسها إذاعتا القاهرة وصوت العرب. وتجدر الإشارة هنا إلـــى أن الإذاعة السعودية من الرياض كانت تقدم نشرة جيدة جدا، باستثناء كل ما يمـــس المملكة بالطبع. وكانت معظم أخبارها ترد في نشرة "واس".

وإلى جانب الأخبار، كان المسجونون والمعتقلـــون يســـتمعون كـــل يـــوم لافتتاحيات كبريات الصحف من الشرق والغرب التي تذيعها إذاعات الدول، مثـــل البرافدا والإزفستيا والواشنطون بوست والتايمز والجارديان والنيويورك تـــايمز والموند والفيجارو وغيرها. ولذلك فقد أضحوا على علم بأدقّ مجريات الأمور في العالم.

والحقيقة أن عبد الستار الطويلة لم يكن يجري أي نوع من الرقابـــة علـــى الأخبار، ولم يحدث أن تدخل أي مسئول سياسي في عمله، حتى لو كانت الأخبـــار التي يذيعها تدحض بعض آرائهم التي يرددونها. وقد استطاع عبد الستار الطويلة فرض ذلك الشرط (أي شرط عدم فرض رقابة علـــى الأخبـــار) علـــى القيـــادات السياسية، التي لم تكن تستطيع أن تتصدى لتشوق جميع الزمـــلاء إلـــى ســـماع الأخبار من أي مكان في العالم.

وكان يحدث أن يعلق الزملاء فيما بينهم على طريقة صياغة خبر ما ـ وبصفة خاصة أخبار الإذاعة البريطانية ـ بعد سماع النشرة. فللإذاعة البريطانية بالذات أسلوب في صياغة الخبر، بحيث توحي بضرورة تصديقه أو على العكس، بضرورة الشك فيه، بدون أن تقول ذلك صراحة، وإنما بأسلوب صياغته. كما أنها تركز بطريقة لبقة على ما تريد ترسيخه في ذاكرة مستمعيها من أنباء مصاغة بأسلوبها، أو تمر مر الكرام على ما ترجو ألا يعلق بذهنهم. وكان الزملاء واعون لذلك تماما.

وبعد بناء المسرح، كما سيأتي في الفصل التالي، أصبح عبد الستار الطويلة يقرأ النشرة صباح كل يوم في ذلك المسرح.

من جهة أخرى، حرص عبد الستار الطويلة على أن "يعين" مندوبين له، يتسقطون الأخبار بجميع الوسائل المتاحة، مثل الدردشة مع السجانة، بل والضباط، كما يحددون للزملاء الذين يتلقون الزيارات، الأسئلة التي يتعين عليهم أن يوجهوها إلى الزائرين لمعرفة آخر الأخبار بأكبر قدر من الدقة. وكان هو نفسه نشيطا جدا في البحث عن الأخبار، مهما بدت قليلة الشأن.

ونشير هنا إلى أنه بعد أن أصبح وجود أجهزة الترانزيستور علنيا، كانت تستخدم، إلى جانب سماع نشرات الأخبار وكتابتها، في سماع الموسيقى. ولن ينسى أحد ممن كانوا في السجن، كيف كان صوت أم كلثوم يلعلع في جنبات السجن خلال الحفلات الشهرية التي كانت تقدمها في أول يوم خميس من كل شهر. وكانت تلك اللحظات، التي يكاد المرء يسمع فيها دبة النملة للسكون الذي

يخيم على الجميع، لحظات سعادة صافية يستمتع فيها كل مسجون ومعتقل بكل جوارحه، بصوت كوكب الشرق المحلق. كما كان هواة الموسيقى الكلاسيكية يستمتعون بسماع بعض منها في البرنامج الثاني المصري. فقد كان سماعها من محطة أخرى يمثل بعض الصعوبة، لأن معظم الإذاعات الأجنبية في تلك الفترة، لم يكن من الممكن التقاطها إلا على الموجات القصيرة. ولا يكون الصوت في هذه الظروف نقيا بحيث يمكن للهواة الاستمتاع استمتاعا كاملا بالموسيقى.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ظروف الاستماع بصفة عامة ممتازة في الواحات، أو على الأقل أفضل منها في المدن مئات المرات. فموجات الأثير لا تصطدم بأية عوائق مادية أو كهرو ـ مغناطيسية تذكر أثناء تجولها في الصحراء. ومع ذلك، فالموسيقى تحتاج إلى صفاء شبه تام كان من الصعب أن يتحقق.

المسرح

الحديث عن المسرح في السجن حديثا مستقلا عن أوجه النشاط الأخرى سببه أن المسرح لعب دورا هاما جدا في النشاط الثقافي للمسجونين والمعتقلين، بل ربما كان من أهم أوجه النشاط الجماعي لهم.

وسينقسم حديثنا عن المسرح إلى قسمين، أولهما المسرح كبناء، وثانيهما العروض المسرحية.

أولا: البناء

بدأ النشاط المسرحي بتقديم مسرحيات مصرية وعالمية في طرقة العنبر. وكانت الفرقة التي تقدم العرض تقوم به في أحد العنبرين في إحدى الأمسيات، وفي العنبر الثاني في الأمسية التي تليها.

وعندما تغيرت الظروف بعد البدء في استصلاح أرض المزرعة، أصبح من الممكن التفكير في بناء مسرح في حوش السجن، الذي كان كبيرا جدا.

وقام المهندس فوزي حبشي، بمساعدة محمد حمام (الذي كان وقتها طالبا بكلية الفنون الجميلة، التي تخرج من قسم العمارة فيها بعد إطلاق سراحه، وأصبح مهندسا معماريا)، وبعد الاتفاق مع إدارة السجن بالطبع، بإعداد الرسوم اللازمة لهذا المسرح. وكانت الرسوم معدة بعد فترة قصيرة من الزمن، طرحت

بعدها للمناقشة العامة. وقد أعرب كل الزملاء المسجونين والمعتقلين تقريبا عـــن إعجابهم بهذه الرسوم.

كانت الفكرة الأساسية هي عمل مدرجات للمشاهدين في شكل نصف دائري، تحيط بـــ "خشبة المسرح" التي كانت على هيئة قوس يكمل الدائرة تقريبا، وعلـــى طرفيها حجرات الممثلين وتبديل الملابس، التي تتصل فيما بينها بطرقة خلف الخشبة.

وكانت المشكلة الأولى هي كيف يجد المنفذون المواد التي ســـيبنون بـــها المسرح كله، بما فيه من مدرجات وحوائط. وكان الحل الوحيد هو "ضرب" الطوب اللازم للبناء من الصلصال الذي تتكون منه الأرض في تلك المنطقة، تحت طبقـــة غير سميكة من الرمال، ثم تجفيفه على مسطح من الأرض يســـميه المعمـــاريون "مفرش"، تحت حرارة الشمس بعد خلطه في "معجنـــة" ببعـــض الرمـــال والتبـــن المتبقي من الدقيق الذي كان يستخدم لصناعة خبز السجن، ثـــم بحســـاب كميـــة الطوب اللازمة. وكانت هذه الكمية كبيرة جدا، إذ تجاوز عددها المليـــون طوبـــة حسب ما قدره المهندس فوزي حبشي.

و قام جميع المسجونين والمعتقلين بالتطوع لضرب الطوب اللازم، وأنشأوا منطقة في الحوش لهذا العمل، ومنطقة أخرى لنشر الطوب النيئ ليجـــف تحـــت حرارة الشمس، يسميها المعماريون "مفرش الطوب". كما حدد المهندس فـــوزي حبشي المكان الذي ستنشأ فيه المدرجات حتى يتم حفره.

وقد اشترك بالفعل معظم من كانوا في السجن في هذه الأعمال. ومما يذكـــر في هذا الصدد أن الزميل فؤاد بلبع انفرد طوال فترة ضرب الطوب، بـــالعمل فـــي "المعجنة" فكان يبدل قدميه المغروستين في الطمي لعدة ساعات كل يـــوم، حتـــى يقوم بعجن الصلصال بأفضل صورة ممكنة.

وطرأت فكرة جميلة (للمرحوم) الفنان حسن فؤاد، فأصدر "مجلة حائط" متوسطة الحجم أسماها "مجلة المسرح"، كانت تقدم تقريرا يوميا عن كمية الطوب التي ضربت، والكمية الباقية لإتمام العمل. كما كانت تحكي عن الطرائف التي كانت تحدث في مواقع العمل، وتكتب رقم الزنزانة التي ينتج سكانها أكبر عدد من الطوب، بالإضافة إلى مقالات صغيرة عن المسرح في مصر وفي العالم. وقد نجحت هذه المجلة في تأجيج التنافس بين الزملاء لضرب أكبر كمية من الطوب يوميا. وكان هذا التنافس تنافسا صحيا، لا أثر فيه للعصبية، بل كان تنافسا يتم في جو من المرح والزمالة، والرغبة المشتركة في إتمام عمل هام، ستكون له آثار ثقافية عظيمة على جميع الناس، وبصفة خاصة الزملاء العمال والفلاحين، الذين لم تتح لمعظمهم فرص كثيرة لأن يشاهدوا أعمالا مسرحية على مستوى عال، سواء أكانت من المسرح العالمي أو من المسرح المصري.

وفي الوقت ذاته، أخذ عدد من الزملاء، تحت إشراف المهندس فوزي حبشي ومساعده محمد حمام، في استخدام الطوب الذي جف، للبدء في البناء. وأخذت المدرجات تكتمل، وبناء الحوائط يعلو، بينما ضرب الطوب يتواصل.

وقد حدثت واقعة طريفة تجدر الإشارة إليها هنا. فقد استيقظ المسجونون والمعتقلون ذات صباح، فوجدوا "مفرش الطوب" خاليا تماما من أية طوبة، في حين أنه كان يضم آلاف الطوب في مساء اليوم السابق قبل إغلاق باب العنبر عليهم. وأصاب الإحباط الجميع، فقد كان ما تركوه بالأمس نتاج عدة أيام من العمل الشاق. وعندما حاولوا معرفة ما حدث، أخبرهم السجانة أن المأمور قد "استعار" هذا الطوب لبناء سور حول منزله. وقرر الزملاء الإضراب عن العمل. وسأل المأمور (الذي كان ينوي فيما يبدو إكمال سور فيلته من ذلك الطوب) عن

سبب توقف العمل، فذهب إليه مندوبو الإدارة وأبلغوه أن ذلك تم احتجاجا على ما فعله. ولم يتم استئناف العمل في ضرب الطوب إلا بعد أن أعرب المأمور عن اعتذاره، مع وعد من الزملاء أن يضربوا له باقي ما يحتاجه للسور بعد تمام بناء المسرح. وقد أوفى الزملاء بوعدهم هذا.

وقد استغرق هذا العمل، بما في ذلك ضرب الطوب وبناء المدرجات والمسرح، نحو أربعة شهور، وأصبح مبنى المسرح شامخا في الطرف الشمالي الشرقي من حوش السجن. وقام عدد من الزملاء بعد ذلك بطلائه بالجير. وكان يحد جانب المنصة (أي خشبة المسرح) من جهة الغرب حائط كبير، يبلغ ارتفاعه حوالي عشرة أمتار، وعرضه نحو عشرين مترا. وعلى هذا الحائط، قام الفنان صبحي الشاروني بتثبيت نحت بارز يمثل حمامة سلام ضخمة، يراها كل من يدخل من باب السجن. وهكذا اكتمل البناء، وأصبح المسرح جاهزا للاستخدام.

وقبل أن نختم هذا الوصف لبناء المسرح، نشير إلى أن هذا الصرح الجميل لم يكن يستخدم للعروض المسرحية فقط، فقد كان يستخدم أيضا لتلاوة نشرة أخبار "واس" الصباحية، كما كان كثيرا ما يستخدم في إلقاء المحاضرات العامة. أما في ليالي شهر رمضان، فكانت تقام فيه سهرات كل ليلة كما سيأتي فيما بعد. ولعل واحدة من أهم المحاضرات التي ألقيت في هذا المسرح، محاضرة قيمة قدمها الدكتور فائق فريد عن أحد العلوم الحديثة التي أحدثت ثورة في التكنولوجيا الحديثة، ألا وهو علم "السيبرناطيقا"، الذي تأسست عليه تطبيقات هامة، أبسطها منظم درجات الحرارة المعروف باسم "الترموستات"، وأعقدها علوم الحاسب الإلكتروني (الكمبيوتر). وكانت المحاضرة مبسطة إلى حد أن أي شخص كان يستطيع أن يتتبعها، على الرغم من صعوبة الموضوع البالغة.

ثانياً : العروض

بدأت العروض المسرحية كما أسلفنا، قبل بناء المسرح. وكانت تقدم في طرقتي كل من العنبرين.

وكانت هناك عروض من المسرح المصري وأخرى من المسرح العالمي. فقد قدمت من روائع المسرح العالمي مسرحيات مثل "ماكبث" لويليم شيكسبير، و"تيكراسوف" لجان بول سارتر، وغيرها.

كان معنا في السجن أيضا الكاتب المسرحي الكبير ألفريد فرج، الذي كتب أثناء فترة اعتقاله مسرحية "حلاق بغداد"، المستوحاة من إحدى قصص ألف ليلة وليلة. وقد مثلها الزملاء لأول مرة قبل أن تقدم على المسرح القومي بالقاهرة بنحو عامين.

وبعد تمام بناء المسرح، أصبحت العروض تقدم فيه بالطبع. وقبل موعد العرض بأسبوعين أو ثلاثة، كان يتم إبلاغ إدارة السجن بموعد العرض، ودعوة المأمور والضباط والسجانة لحضوره. فالعرض كان يتم مساء، لذا كان لا بد من موافقة الإدارة على عدم إغلاق العنابر عند الغروب كما جرت العادة. ولم يحدث أن اعترضت الإدارة، بل وكانت تدعو طبيب مستشفى الواحة، ووكيل النيابة، وغيرهما من كبار موظفي الخارجة لحضور العروض. ولم يتخلف مأمور السجن أو أحد الضباط عن حضور أي عرض مسرحي قدمه الزملاء طوال الفترة التي امتدت أكثر من عامين، أي إلى أن تم إغلاق السجن في إبريل عام ١٩٦٤، بل وكان أولاد المأمور يحضرون العروض المسرحية عندما يكونون في الواحات.

وتجدر الإشارة هنا إلى واقعة طريفة. فقد حدث أثناء العرض الأول الذي أقيم في هذا المسرح أن جاء السجان المكلف بالتليفون بمبنى الإدارة، وقال لوكيل النيابة إن كاتب النيابة في الواحة اتصل تليفونيا، وأنه يبلغه بضرورة توجهه إلى مكتبه فورا لأمر هام. وابتسم وكيل النيابة، وصرفه، لكنه لم يتحرك من مكانه واستمر في مشاهدة العرض حتى النهاية. وكان العرض - إذا لم تخنني الذاكرة- هو مسرحية "عيلة الدوغري" لنعمان عاشور.

وبعد انتهاء العرض، حرص وكيل النيابة على تهنئة المأمور والمخرج والممثلين. وسأله أحدهم كيف لم يتوجه إلى مكتبه عندما تلقى المكالمة التليفونية، فقد تكون جريمة خطيرة قد وقعت، أو أن مسئولا كبيرا كان يريد الاتصال به. وضحك وكيل النيابة قائلا إنه كان قد اتفق مع كاتبه أن يتصل به ليطلب منه سرعة الحضور، لأنه كان يتوقع أنه سيشاهد عرضا ساذجا لفرقة من الهواة، حتى يستطيع أن يتخلص من الملل الذي كان واثقا أنه سيشعر به. لكنه، أمام روعة العرض، استمر في مشاهدته حتى نهايته، بل وقال إنه سبق وشاهد عرض نفس المسرحية لإحدى الفرق الكبرى في القاهرة، لكنه يرى أن عرض الواحات كان أفضل.

ووجه وكيل النيابة سؤالا للمخرج، معربا عن دهشته لدخول آنسات وسيدات للسجن لتقمن بالأدوار النسائية. ورد المخرج بسرعة قائلا إن السيد المأمور يسمح بدخولهن حتى يمكن إقامة العروض. وهنا انفجر المأمور ضاحكا، ونزع الزملاء الذين قاموا بالأدوار النسائية الشعر المستعار، ومسحوا الأصباغ، وظهر أنهم ذكور. وأعرب وكيل النيابة عن دهشته الشديدة وأعاد تهنئتهم.

وكان الزملاء الذين يقومون بالأدوار النسائية يقومون بعمل كل ما من

شأنه إقناع المشاهدين ــ الذين كانوا يعرفونهم جيدا بالطبع ــ بـأدوارهم، حتـى أنهم كانوا يزيلون الشعر من سيقانهم وأذرعهم حتى يبدون فعلا أقرب إلى الإناث. كذلك فقد كان الشعر المستعار الذي يضعونه على رؤوسهم، يصنعه بعض الزملاء بإمكانيات متواضعة جدا، منها مثلا صوف فراء الخـراف التـي تذبـح لإطعـام السجانة والمسجونين ، بحيث يبدو وكأنه بالفعل شعر طبيعي.

وقد تألق في هذا العرض الأول على المسرح بعد بنائه عدد من الزمـلاء ــ وجميعهم لم يسبق لهم التمثيل من قبل ــ وعلى رأسهم على الشريف، الذي كان مدرسا للغة العربية قبل دخوله السجن. وقد قام على الشريف بدور كبرى بنـات "علية الدوغري"، على الرغم من أنه لا يتمتع شكلا بأية أنوثة، لكنه نجـح فـي إقناع المشاهدين بدوره الذي أداه ببراعة منقطعة النظير. وبالطبع، فإن أداءه كان مثيرا لعواصف من الضحك، لكن المسرحية في الأساس ــ وعلى الرغم من جدية ما تناقشه من قضايا ــ كوميدية. واحترف علي الشريف التمثيل بعـد خروجـه، ولمع في عدة أدوار هامة في السينما والتليفزيون، ومنها مثلا أداوره في أفـلام "الأرض" و "العصفور" وغيرها قبل أن يتوفى وهو في قمة مجده. كما أبدع أيضـا الزميل لطفي فطيم في دور لاعب كرة القدم المحترف.

وبهذه المنسبة، تجدر الإشارة أيضا إلى أن عددا من الزملاء الوقورين جدا، قد تألقوا في أدوار عديدة في المسرحيات التي قدمت قبل بناء المسرح، ومنهم ــ على سبيل المثال فقط ــ الأستاذ نبيل الهلالي المحامي المعروف، في دور اللـص الذي تقمص مرغما شخصية الوزير السوفييتي نيكراسوف في مسرحية جان بول سارتر، والزميل فخري مكاري ــ وكان مدرسا للغة الإنجليزية في إحدى المدارس الثانوية ــ في دور الحلاق، و(المرحوم) الزميل صلاح حافظ، رئيس تحريـر روز

اليوسف الأسبق، في دور الأمير في مسرحية ألفريد فرج "حلاق بغداد". ولأنني أكتب من الذاكرة، فإنني لست أذكر الآن أسماء بعض الزملاء الآخرين الذين أبدعوا في "ماكبث" لويليم شيكسبير، وفي "الناس اللي تحت" وفي "عيلة الدوغري" لنعمان عاشور، وغيرها.

ولا يفوتني هنا أيضا أن أشير إلى الجهود الرائعة التي كان الزملاء المخرجون ومديرو الإضاءة ومهندسو الديكور، يقومون بها لكي تخرج العروض في أفضل صورة وأجملها وأقربها إلى روح النص. وبهذا الصدد، لا أعتقد أن أحدا ممن حضروا عرض "ماكبث" يمكنه أن ينسى الأرواح الثلاثة التي كانت تظهر لليدي ماكبث وتحرضها على دفع زوجها لاغتيال الملك والاستئثار بالعرش. كان ديكور هذا المشهد جديرا بأي مسرح في العالم، على الرغم من أن المسرحية قد قدمت في طرقة العنبر، وبإمكانيات متواضعة جدا.

ثالثاً: الإعداد للعرض

ولكي تكون العروض المسرحية على هذا المستوى الرفيع، كان لا بد من الإعداد لها إعدادا جادا متقنا.

كان اختيار النص المسرحي يتم بمبادرة فردية بالطبع، ربما باستثناء مسرحية ألفريد فرج "حلاق بغداد" التي كتبها في السجن، والتي كان الجميع يريدون مشاهدتها على خشبة المسرح.

كان المخرج، أو أي زميل آخر يريد تمثيل أحد النصوص أو أحد الزملاء

النقاد المسرحيين، يختار النص الذي يراه ملائما، وبمبادرة منه، يتم جمع الفريق. وكانت الكلمة النهائية بالضرورة، للمخرج. فهو الذي يوزع الأدوار ويراقب العمل من ألفه إلى يائه.

وقبل أن تبدأ بروفات المسرحية، كان المخرج يتفق مع أحد النقـــاد، لكـــي يقوم بدراسة كاملة مدققة للنص، ولدور كل شخصية فيه. وعندما تنتـــهي هـــذه الدراسة المكتوبة، ويناقشها المخرج مع الناقد ويتفقان على صيغتـــها النهائيـــة، يجتمع فريق العمل بأكمله، بما في ذلك المسئولون عن الإضاءة وعـــن الديكـــور وعن الماكياج، ويتلو عليهم الناقد الدراسة العامة للنص أولا، ثم يناقش الجميـــع هذه الدراسة، ويبدون عليها ملحوظاتهم. ثم ينتقل الناقد بعد ذلك إلى تحليل كـــل شخصية على حدة. وتجري المناقشات بعد كل شخصية. وكان جميع المشـــاركين في العمل، يساهمون بالفعل في المناقشات بصورة جدية. بعد ذلك، وليس قبلـــه، تبدأ البروفات، التي كانت تستغرق الوقت اللازم لكي يحفظ كل ممثل دوره وحركته التي حددها له المحرج على المسرح (خاصة وأن المخرجين كانوا جميعا يرفضون وجود ملقن، مما كان يجعل الممثلين يضطرون لحفظ أدوارهم حفظا تاما)، ولكـــي يجيد أداء دوره أفضل إجادة ممكنة، مهما استغرق ذلك من وقت. وعادة لم يكـــن الناقد يحضر جميع البروفات، إلا إذا رغب في ذلك. ثم يجري المخـــرج البروفـــة العامة بحضور عدد من النقـــاد، ليبـــدوا ملحوظاتـــهم، إذا عنـــت لـــهم بعـــض الملحوظات. وهكذا يصبح العرض جاهزا لتقديمه لجمهور المشاهدين، الذين لـــم يكونوا في الواقع يمثلون جمهورا عاديا، بل كانوا جمهورا متمـــيزا يحســـب لـــه العاملون في المسرحية ألف حساب.

وتجدر الإشارة هنا أن مجلة المسرح، التي كانت مجلة حائط كما أســـلفنا،

والتي بدأت مع بداية بناء المسرح نفسه لتشجيع الزملاء على الاشتراك في ضرب الطوب وبناء المسرح، لم تتوقف عن الصدور بعد استكمال البناء، وإنما أصبحت أسبوعية بعد أن كانت يومية، وكبر حجمها، وأصبحت مزينة برسوم وزخارف جميلة، بحيث بات إخراجها رائعا. وكانت هذه المجلة تكتب نقدا عن كل مسرحية تقدم في السجن، كما تتابع أخبار المسرح في العالم، وتحصل على أخبارها من الإذاعات العالمية أو من المجلات المصرية والعالمية التي كانت تصل السجن. وكان يكتب فيها متخصصون في النقد المسرحي، أذكر منهم الدكتور صبري حافظ، أستاذ الأدب المقارن بجامعة لندن البريطانية حاليا، والدكتور سامي خشبة، رئيس هيئة المسرح السابق، والدكتور فتحي عبد الفتاح المسئول عن الثقافة والفنون بدار الجمهورية، والمرحومان الدكتور لويس بقطر وعبد السلام زكي مبارك وغيرهم.

وقبل الانتهاء من الحديث عن المسرح، هناك واقعة تستدعي التأمل والتفكير سأرويها هنا.

كان سجن الواحات يتكون من ثلاثة عنابر، أولها يحتله المعتقلون الشيوعيون، والثاني المسجونون الشيوعيون. أما العنبر الثالث، فكان يحتل نصفه الإخوان المسلمون الذين صدرت ضدهم أحكام في قضية التنظيم السري المسلح عام ١٩٥٦. وكان من بينهم الشيخ عمر التلمساني، أحد الإخوان القلائل جدا الذين كانوا يتبادلون الحديث مع الشيوعيين. أما نصف العنبر الثاني، فكان يحتله مسجونون في جرائم غير سياسية، ومعظمهم في جرائم سرقة. وكان هؤلاء يتبدلون كل ستة شهور. وكان الغرض من وجودهم في الواحات — إلى جانب أنه تأديب للمسجونين المشاغبين — هو القيام بأعمال النظافة في السجن بصفة عامة

وفي العنابر، بالإضافة إلى العمل في المخبز والمطبخ. لكـن الشـيوعيين كـانوا يرفضون أن يقوم أحد بتنظيف عنابرهم أو زنازينهم، فهم لم يكونوا يأنفون العمل اليدوي من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يعدون ذلك نوعا من العبودية يرفضونه. لذلك كان هؤلاء المسجونون ينظرون للشيوعيين نظرة تقدير واحترام، على الرغم من كل الأكاذيب والافتراءات التي كان وعـاظ السـجون يقولونـها لـهم عـن الشيوعيين قبل إرسالهم إلى الواحات. فقد دأبت المصلحة على عقد اجتماعات لهم مع الوعاظ قبل إرسالهم إلى الواحات، حتى يحذرونهم مـن تـأثير الشـيوعيين، ويشحنونهم ضدهم بأكاذيب فاضحة، اعتمادا على أن مستواهم الذهني يمكنـهم أن يحشونه بأية ترهات لا يتصورها عاقل. وقد دفع المصلحة إلى ذلك أنه في عـام ١٩٥٣، استطاع الزملاء الذين كانوا في ليمان طرة (لأن الحكومة كانت تعدهـم مجرمين عاديين وليسوا سياسيين)، وعلى رأسهم الزميلان (المرحوم) مصطفـى طيبة ومجدي فهمي، تنظيم إضراب لجميع المسجونين المحكوم عليهم بالأشـغال الشاقة، هز وزارة الداخلية وفرض عليها حالة طوارئ. ولم ينتهي الإضـراب إلا بالاستجابة لمطالب المسجونين، وعلى رأسها عدم تقييد أرجلـهم بصفـة دائمـة بجنازير من الحديد.. ومنذ ذلك التاريخ، تم الاعتراف بأن المسجونين الشـيوعيين مسجونين سياسيين، وأفردت لهم إما سجون خاصـة، أو أمـاكن مسـتقلة فـي السجون العامة، مثل سجن القناطر الخيرية وسجن مصـر والسـجون الأخـرى، لعزلهم بقدر الإمكان عن المسجونين العاديين.

وعندما بدأ تقديم الأعمال المسرحية على المسرح الـذي تـم بنـاءه فـي الحوش، كان الشيوعيون يوجهون الدعوة لحضـور العـروض إلـى الإخـوان المسلمين وإلى المساجين غير السياسـيين. لكـن الإخـوان المسـلمين كـانوا

يشكرونهم ويعتذرون عن الحضور، بينما كان الآخرون يرحبـــون بـــها بـــالطبع، خاصة وأن الأغلبية الساحقة منهم ـــ إن لم يكن كلهم ـــ لم تكن قد شاهدت عرضا مسرحيا في حياتها.

وكان هذا هو حال عبده أمين.

وعبده أمين كان محكوما عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة العود فـــي جريمة سرقة (أي أنه قد سبق الحكم عليه في جريمة سرقة مـــن قبـــل، وعـــاد لارتكاب جريمة مماثلة قبل مضي ثلاث سنوات، لذلك يعد "عائدا" ويكـــون الحكـــم الثاني مشددا). لكنه ـــ في عرف المسجونين في السجون المصرية ـــ في أســـفل السلم الاجتماعي الخاص بهم. فهو ممن يطلقون عليهم اسم "حرامي غســـيل"، أي أنه يسرق الغسيل من فوق أسطح المنازل، وهي أدنى منزلة في المحكوم عليـــهم في جرائم السرقة. واللصوص بصفة عامة في مرتبة دنيا في السجون المصريـــة، التي تتكون "أرستقراطيتها" من المحكوم عليهم في قضايا الثأر وتجار المخـــدرات، يليهم المحكوم عليهم في جرائم القتل، وهكذا يتدرج السلم بعد ذلك نـــــزولا إلـــى لصوص الغسيل. والغريب أن الضباط بمختلف مستوياتهم والســـجانة، يجـــب أن يراعوا هذا التسلسل الطبقي في معاملتهم مع المسجونين حتى يستطيعوا السيطرة على السجن.

وعبده أمين كان من أصل صعيدي، لكنه ولد في الإسكندرية وعاش عمـــره كله فيها، بل ولم يرى الصعيد في حياته. وكان يجيد القراءة والكتابة.

وعندما شاهد عبده أمين مسرحية "عيلة الدوغري" في مسرح السجن، كان

مشدوها. كان يعيش تجربة فريدة أخذته بكل كيانه. كان يعرف أن هناك مسارح، بل ويعرف أسماء المسرحيات التي تقدم فيها وأسماء الممثلين، وكان يتردد على السينما كثيرا، لكن لم يتح له قط أن يشاهد عملا مسرحيا. ولم يغمض له جفن ليلتها، كما حكى هو نفسه في اليوم التالي.

وأصبح عبده أمين ملازما للزملاء الذين اشتركوا في تقديم العرض، لا يريد أن يفارقهم، ولا يريد أن يكف عن الحديث عن المسرحية.

وفاجأ عبده أمين الزملاء يوما بقوله :

ـ أريد أن أكتب مسرحية.

وضحك الزملاء، لكنهم أعطوه كراسة وقلما.

وانكب عبده أمين على تأليف مسرحيته. كنا نشاهده يجلس الساعات الطوال إلى جانب سور السجن ليكتب، ولا يكاد يكلم أحدا. وبعد بضعة أيام، ذهب وقد تهلل وجهه إلى أحد الزملاء قائلا :

ـ لقد كتبت المسرحية. والآن، أريد أن أمثلها.

وطلب منه الزميل أن يعطيه إياها لكي يقرأها، لكن عبده أمين رفض رفضا قاطعا وهو يقول :

ـ ستشاهدها على المسرح.

وقال له الزميل إنه على أي حال سيحتاج لمخرج، وأنه مستعد لإخراجها، لكن عبده أمين لم يتزحزح عن موقفه، وأكد للزميل أنه هو الذي سيخرجها ويمثل

الدور الرئيسي فيها بنفسه. لكنه طلب منه أن يساعده في العثـور علـى أربعـة زملاء "يجيدون التمثيل" (على حد تعبيره).

وبعد نحو ثلاثة أسابيع، نادى المنادون بأن عبده أمين سيقدم مسرحيته بعد ساعة. وكان العرض بعد الظهر وليس في المساء كما جرت العادة، فقد كان مـن المستحيل أن تقبل إدارة السجن أن تقبل عدم إغلاق العنابر من أجـل مسـرحية كتبها ويخرجها "لص غسيل".

وتوافد عدد لا بأس به من الزملاء لمشاهدة مسرحية عبده أمين.

لم تكن مسرحية بمعنى الكلمة. كانت أقرب إلى اسكتش "عرض رجل واحد"، فأدوار الزملاء الأربعة كانت صغيرة، هي أقرب إلى أدوار الكومبارس. واضطلـع عبده أمين بالبطولة المطلقة. لكن أغرب ما في الأمر أن هذا الاسكيتش، الذي كان كوميديا وطريفا، كان يتضمن عقدة تتطور حتى تصل إلى الذروة، ثم يأتي الحـل. كذلك كان يحترم قواعد المسرح، أي وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الحـدث، تلك القواعد التي كان يسير عليها المسرح منذ عصر الإغريـق حتـى العصـور الحديثة، والتي استخلصها أرسطو. ومع ذلك، فإن أحدا لم يعلم عبده أميـن تلـك القواعد، وهو بالطبع لم يسمع بأرسطو أصلا. لقد أدرك كل هذه القواعد بفطرتـه وحدها، بعد مشاهدة مسرحية واحدة.

لقد آمنت بعد مشاهدة هذا العرض، أن الحضارة ليست فقط كتبـا وعلومـا وسلوكا، بل إنها شيء عميق يترسب في الوجدان الجماعي للشعب، ويظهر فـي معظم تصرفاته. وقد تأكد لي ذلك بعد أن عشت خارج مصر لفترة طويلـة جـدا،

جبت فيها كثيرا من الدول الأوربية المتقدمة، والآسيوية، وتعـــاملت مـــع رجـــل الشارع في جميع هذه الدول. فالمصري العادي يمتاز عن أي رجـــل فـــي الـــدول الأخرى بذكاء فطري حاد، وبتصرفات حضارية واضحة وبحكمة عميقة. لكنه، بكل أسف، كثيرا جدا ما يستخدم هذا الذكاء وهذه الفطنة، في خداع الآخرين بما يعرف "بالفهلوة"، وكأنه يتلذذ بتجربة ذكائه وفطنته في هذا المجال.

ولم يكرر عبده أمين التجربة، لأنه لم يبق في الواحات بعدها أكثر من شـــهر واحد، فقد انقضت المدة التي كانت مقررة في هذا السجن للمجموعة التـــي جـــاء معها. ولا أدري شيئا عن مصير عبده أمين بعد ذلك. هل استمر يســـرق ويدخـــل السجن، أم هل وجد عملا آخر؟ وهل قابله الزملاء الذين يعيشون في الإســـكندرية بعد خروجهم من السجن أم لا؟ وهل حاول أن يكتب بعد ذلك أم لا؟

الثقافة الجديدة

كان المسجونون والمعتقلون في سجن الواحات يصدرون مجلة شهرية باسم "الثقافة الجديدة". وكانت على مستوى ثقافي عال جدا.

وكان حجمها كبيرا، فقد كانت تقع في مائة وعشرين صفحة. تكتب في كشكول بخط جميل، وعناوين مقالاتها كانت بخط رقعة وبالألوان. وكانت كثير من صفحاتها مزينة بالرسوم الملائمة، وبصفة خاصة في الهوامش. أما غلافيها الخارجيين، الأمامي والخلفي، فكانا لوحتين فنيتين رائعتين. كان إخراجها، باختصار، عملا جماليا متكاملا، بحيث يجعل قراءتها متعة للعقل والعين معا.

ولما كان بالسجن عدة تنظيمات سياسية، فقد كان يرأس تحرير المجلة خمسة من الزملاء ينتمون لمختلف التيارات، بالإضافة إلى المستقلين، لكن روعي في اختيارهم مستواهم الثقافي العالي بالطبع. وقد تم الاتفاق منذ البداية على أن تكون المجلة ثقافية فقط، لا تطرح فيها مسائل سياسية خلافية. ولكن، لأنه لا يمكن فصل الثقافة عن السياسة، فإن الجانب السياسي في هذا المجال كان عاما جدا، بحيث لا يختلف عليه اثنان.

وكان عدد من أعلام الثقافة يكتب في هذه المجلة، منهم على سبيل المثال لا الحصر، محمود أمين العالم، والدكاترة إسماعيل صبري عبد الله و(المرحوم) فؤاد مرسي وعبد العظيم أنيس وأبو سيف يوسف أبو سيف وأديب ديمتري وفيليب جلاب وألفريد فرج وصبري حافظ وسامي خشبة و(المرحوم) عبد السلام مبارك وأمير اسكندر و(المرحوم) لويس بقطر و(المرحوم) إسماعيل المهداوي وإبراهيم فتحي ونبيل زكي ومجدي فهمي و(المرحوم) زكي مراد، وغيرهم كثيرون.

وكانت المقالات تتناول مختلف جوانب الأدب بصفة خاصة، والثقافة بصفة عامة، سواء في ذلك الأدب العربي المعاصر أو القديم، وكذلك الأدب العالمي، حديثه وقديمه، بالإضافة إلى المشكلات التي تواجهها الثقافة في مصر والعالم العربي، أو في جميع أنحاء العالم. وأذكر، على سبيل المثال أيضا، دراسات قيمة عن الشعراء الأقدمين مثل أبي الطيب المتنبي وأبي نواس وأبي العلاء المعري، و أخريات عن مسرح توفيق الحكيم، وعن نظريته في "التعادلية"، وعن طه حسين وعن كتابيه "في الشعر الجاهلي" و"مع أبي العلاء في سجنه"، وعن مساهمات ساطع الحصري في أبحاثه عن القومية العربية، وعن شعر صلاح عبد الصبور، وعدد من الدراسات عن الأدب الأمريكي المعاصر، وعن الأدب الروسي، وعن الأدب الإنجليزي منذ العصر الفيكتوري وحتى وقت كتابة تلك الدراسة، وعن شيكسبير ومسرحه... الخ.

وكانت المجلة تنشر أيضا إنتاج الزملاء القصصي والشعري، وبصفة خاصة الأعمال التي تحتل المراكز الثلاثة الأولى في مسابقات القصة القصيرة، تلك المسابقات التي سنتحدث عنها فيما بعد.

ولم يكن من الممكن بالطبع عمل أكثر من نسخة واحدة من المجلة، لذلك فقد كان الزملاء يستعيرونها بالدور. وكثيرا ما كان زميل يستعيرها لنفسه، لكن عددا آخر ممن يقيمون في نفس زنزانته يقرأها في نفس الوقت. وكان ذلك صعبا بالطبع، لكن لم تكن هناك وسيلة أخرى. وكثيرا ما كان عدد من الزملاء لا يرى المجلة إلا بعد صدورها بشهرين أو ثلاثة، ولكن ذلك على أي حال كان أفضل من عدم وجودها.

ولا شك أن "الثقافة الجديدة" لعبت، إلى جانب جامعة الشهيد شعبان حافظ والمسرح، دورا هاما في تبادل الخبرات والأفكار بين الزملاء، كما ساعدتهم على إبراز مواهبهم ومناقشتها مع الآخرين، وجعلتهم يشعرون أن وقتهم لا يضيع هباء خلال

فترة قاسية من أعمارهم، كما ساهمت في رفع روحهم المعنوية، وجعلتهم يتحملون تلك الظروف بقوة وشجاعة. كما أنها فتحت أمام عدد من الزملاء العمال والفلاحين آفاقا من الثقافة كانت بعيدة عن متناولهم، فرفعت من قدراتهم الثقافية والذهنية.

وعندما تم ترحيل جميع المعتقلين والمسجونين إلى القاهرة تمهيدا للإفراج عنهم في شهر مارس عام ١٩٦٤، قامت المباحث العامة بتفتيش الجميع، وصادرت كل ما معهم من أوراق، ومنها جميع أعداد "الثقافة الجديدة"، وعدد هائل من الروايات والقصص والأبحاث، مع وعد بردها بعد قراءتها! والتأكد من أنها لا تحوي كتابات ممنوعة تحض "على قلب نظام الحكم" على حد قولهم. وعلى الرغم من المطالبات العديدة بتحقيق ذلك الوعد، وعلى مرور ست وثلاثين عاما على الإفراج عن الجميع، فإن المباحث العامة لم تبر بوعدها. ونرجو ألا تكون أعداد "الثقافة الجديدة" والروايات والقصص على الأقل، قد تم إعدامها، فهي وثائق تاريخية هامة، من الممكن الرجوع إليها عند كتابة تاريخ هذه الفترة من الزمن.

وما أمكن إنقاذه من الإنتاج الأدبي والفني للزملاء في السجن هو الذي تم تهريبه إلى خارج السجن في فترات مختلفة، حيث بقي مخبأ لدى العائلات أو الأصدقاء لحين فك أسر المسجونين والمعتقلين.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد، أن رجال الأمن صادروا، عند إلقاء القبض على المهندس فوزي حبشي عام ١٩٧٥، على مخطوط لكتاب هام كان الدكتور لويس عوض قد كتبه في السجن وتم تهريبه، بعنوان "حول قانون الذاتية، أو الرد على فريدريك إنجلز". وكان هذا المخطوط، الذي لم يكن قد نشر بعد، هو النسخة الوحيدة من كتاب الدكتور لويس عوض. ونرجو أن يعثر عليه رجال المباحث العامة في أضابيرهم، خاصة وأنه كتاب ينتقد جانبا هاما من أفكار أحد أكبر منظري الشيوعية، وهو بذلك يمكن أن يكون مساعدا لهم في "مكافحتهم" للشيوعية. وبصرف النظر عن ذلك، فأفكار الدكتور لويس عوض، سواء اتفقنا أو اختلفنا معها، جديرة بأن يقرأها المثقفون.

مسابقات القصة القصيرة

قام الزملاء خلال فترة سجنهم في الواحات، بتنظيم عدد من المسابقات في القصة القصيرة للزملاء الهواة، أي الذين لم يكونوا ينشرون القصة القصيرة قبل دخولهم السجن. وكان يتم نشر القصص الثلاث الفائزة بالجوائز الأولى في مجلة "الثقافة الجديدة" كما أسلفنا. كما كانت القصص الأخرى التي لم تفز بجوائز، يتم تداولها للقراءة بين الزملاء.

ولو كانت النتيجة الوحيدة لهذه المسابقات هي تفتح موهبة عظيمة هي موهبة (المرحوم) عبد الحكيم قاسم، لكان ذلك كافيا. لكن الواقع هو أن هذه المسابقات أتاحت ظهور مواهب أخرى كثيرة لكتاب أصبح لهم شأن بعد ذلك.

وعندما فاز عبد الحكيم قاسم بالجائزة الأولى في إحدى هذه المسابقات، لم يكن قد نشر شيئا قبل ذلك. وربما تكون هذه الجائزة قد ساعدته معنويا على الاستمرار في الطريق الذي جعل منه بعد سنوات واحدا من أبرز كتاب القصة في العالم العربي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الطبيب الدكتور حمزة البسيوني، فاز بالجائزة الأولى في إحدى هذه المسابقات عن قصة رقيقة جميلة، لكنه للأسف لم يواصل الكتابة في حدود علمي.

وكانت لجان التحكيم، وإن تدخل فيها إلى حد ما اعتبار تمثيل كافة الاتجاهات السياسية، تتشكل من نقاد كبار مشهود بكفاءتهم في مجال النقد الأدبي، لذلك فإن أحدا لم يشكك مطلقا في نتائج منح الجوائز. وكانت الجوائز، بالطبع، علبة سجائر كاملة للجائزة الأولى، وعشرة سجائر للثانية، وخمسا للثالثة.

وقد حفزت فكرة مسابقات القصة القصيرة الزملاء على الكتابة، ليس فقط لدخول المسابقات، وإنما لحاجتهم إلى التعبير عما كان يجيش في صدورهم. وقد نشرت كتابات عديدة مما كتبه الزملاء في السجن بعد خروجهم للحرية، أذكر منها – على سبيل المثال – رواية "الشمندورة" (للمرحوم) محمد خليل قاسم، ورواية عبد الستار الطويلة "الرجل الذي يعدو"، التي نشرت مسلسلة على حلقات عي مجلة روز اليوسف قبل أن تصدر في كتاب، كما كتب زين العابدين سليط مسرحية، حولها بعد خروجه من السجن إلى سهرة تليفزيونية أخرجها محمد السيد عيسى ونالت قسطا كبيرا من النجاح، عن مجموعة من رجال المقاومة في بورسعيد في فترة احتلال الإنجليز لها عام ١٩٥٦، تحصنوا في منزل مهجور، ومعهم جثة أحد زملائهم، هذا غير عدد وفير من القصص القصيرة.

كما كتب ألفريد فرج ـ كما أسلفنا ـ مسرحية "حلاق بغداد" وعددا من القصص القصيرة. وقد أصبحت "حلاق بغداد" من مسرحيات برنامج المسرح القومي، يقدمها كل بضع سنوات حتى الآن. أما القصص، فقد نشرت كلها.

وعلى الرغم من عدم تنظيم مسابقات للشعر، إلا أن زملاء كثيرين كانوا يقرضونه، ويقرأونه على الزملاء الآخرين، أو ينسخونه ويتم تبادله. وكان من أبرز الشعراء الزميل (المرحوم) زكي مراد، إذ كان شاعرا مجيدا جدا. لكن السياسة استحوذت على جل اهتمامه – فقد كان واحدا من أبرز القادة السياسيين– فلم يعن كثيرا بتجميع شعره ونشره، وإلا لكان سيعد من كبار شعراء العربية المعاصرين.

وكان يكتب تقاريره السياسية دائما بلغة عربية سامية سلسة، تعد نماذج رفيعة من الكتابة بالعربية، يمكن أن تدخل تحت تصنيف الأدب، على الرغم من موضوعاتها التي قد تبدو جافة لا تمت للأدب بصلة.

أوجه نشاط أخرى

إلى جانب ما تقدم، كانت هناك أوجه نشاط ثقافي وفني أخرى في السجن، وبصفة خاصة في مجال الفنون التشكيلية.

فقد تم تخصيص مكان مثلا للرسامين. وكان الزميلان (المرحوم) وليم اسحاق وداود عزيز، الرسامان المعروفان، يقيمان بصفة شبه دائمة تقريبا في هذا المرسم. وكان يتردد عليهما فيه بصفة مستمرة عدد من الزملاء، أذكر منهم على سبيل المثال الزملاء (المرحوم) عبد الوهاب الجريتلي ومجدي نجيب و المهدوي، وهو رسام من الإسكندرية. وكان كل من يريد أن يشاهد أعمال الرسم التي تتم في المرسم يستطيع زيارته في أي وقت. وقد رسم داود عزيز وعبد الوهاب الجريتلي "بورتريهات" لعدد كبير من الزملاء، غير اللوحات التي كانا يرسمانها هما ووليم اسحاق. ومعظم هذه اللوحات و"البوتريهات" لا تزال موجودة عند الزملاء.

وفي هذا الصدد أيضا، تجدر الإشارة إلى أن الفنانة الكبيرة (المرحومة) إنجي أفلاطون، (التي كانت مع مجموعة كبيرة من الزميلات، منهن على سبيل المثال الفنانة محسنة توفيق، وثريا حبشي وثريا ياسين وليلى الشال وغيرهن، معتقلات في سجن القناطر الخيرية) قد أنتجت عددا كبيرا من اللوحات الرائعة حلال فترة اعتقالها، والتي أصبحت أسعارها في سوق الفن التشكيلي مرتفعة جدا.

وبهذه المناسبة أيضا، كانت معظم المعتقلات في سجن القناطر إما زوجات لزملاء مسجونين أو معتقلين في السجون المختلفة، وإما مخطوبات لزملاء

آخرين، أو تربطهن علاقات حب بالبعض الآخر. وكان المسجونون والمعتقلون يتبادلون الرسائل المهربة مع زوجاتهم وخطيباتهم وحبيباتهم المعتقلات بوسائل وأساليب متعددة. كان الأمر سهلا نسبيا لمن يوجدون في سجن القناطر. أما بالنسبة للزملاء الموجودين في سجون أخرى، فكانت المسألة أشد صعوبة، إذ كان يتعين تهريب الرسالة من السجن الآخر، إما إلى الخارج، حيث يعاد تهريبها ثانية إلى سجن القناطر، مباشرة إلى سجن النساء – ولكن ذلك لم يكن متاحا دائما – أو، في معظم الأحيان إلى الزملاء في سجن الرجال، الذين يهربونها بدورهم إلى سجن النساء بالخبرة التي اكتسبوها. وتسلك رسائل الزميلات الطريق العكسي. وكثيرا ما كان من يحملون الرسائل المهربة يتصورون أنهم ينقلون رسائل سياسية هامة، ولا يعرفون أن كلمات الحب والأشواق تكاد تلهب الأوراق التي يحملونها.

وكانت هناك نافذة في جانب من أحد عنابر سجن الرجال، تطل ـ من مسافة بعيدة جدا ـ على نافذة في جانب من سجن النساء. وعلى الرغم من أن الرؤية كانت شبه متعذرة، نظرا لأن مسجونات الجرائم العادية كن دائمات التجمع بكثافة عند نافذة سجنهن من جهة، ونظرا لأن المسافة بعيدة جدا، كان كل زميل يحدد لزوجته أو خطيبته أو حبيبته، مواعيد معينة لتقفن في الشباك حتى يستطيع مجرد لمحها لمحة سريعة، يتعرف على شخصها بقلبه أكثر مما يراها بعينيه. وكان الزملاء المعتقلون في السجون الأخرى يحسدون من يوجدون في سجن القناطر الخيرية لمجرد أنهم يستطيعون لمح رفيقاتهم. وقد استوحى المخرج محمد فاضل ما سمعه من الزملاء بهذا الصدد في فيلم "الحب في الزنزانة" الذي قام ببطولته عادل إمام وسعاد حسني.

ونعود إلى سجن الواحات، فنشير أيضا إلى أن مجدي نجيب كان يرســم – على أظرف بريد – كروتا جميلة للزملاء الذين يريدون إرسال تهنئة بمناسبة ما لأب أو أم أو زوجة أو ابن أو ابنة أو صديق. وكانت هذه الكروت تشيع جوا مـن التفاؤل والغبطة لمن يتلقاها.

نفس الفكرة، لكن بصورة مختلفة، كان ينفذها الزميل محمود السكران. كان يستخدم عظام الذبائح التي كانت تمد السجن بـاللحم الـلازم لإطعـام المـأمور والضباط والسجانة والمسجونين والمعتقلين، ليصنع منه تحفـا صغـيرة، مثـل الملاعق العاجية التي تباع للسياح في جميع أنحاء العالم، ومثل فتاحات الخطابات العاجية، لكنها مزينة بنحت جميل، ومثل المسابح.

ولم تكن عظام الذبائح بكل تأكيد في مثل جمال العاج، لكن محمود السـكران كان يصقلها بصبر شديد حتى يقترب شكلها بالفعل من شكل العاج. وكـانت هـذه الهدايا البسيطة للأهل والأصدقاء، دليلا علـى أن المسـجونين والمعتقليـن لـم يستسلموا لظروفهم، وأنهم لا يضيعون وقتهم في انتظار الإفراج عنهم.

وكان هناك أيضا مكان تم تخصيصه للنحت. وكـان الزميـلان (المرحـوم) حسن فؤاد وصبحي الشاروني يقومان فيه بأعمال النحت، وبتعليم هذا الفن لمـن يرغب في ذلك. وفي هذا المكان، نفذ صبحي الشاروني حمامة السـلام الضخمـة التي علقت على واجهة المسرح، كما سبق قوله. كذلك قام بعمـل لوحتيـن مـن النحت الغائر (على الطريقة المصرية القديمة)، قام المأمور بتثبيتهما على جـانبي مدخل السجن الرئيسي، فأضفت عليه رونقا، وجعلته أشبه بالمتحف منه للسجن.

سهرات ترفيهية

طوال شهر رمضان المعظم، كانت تقام كل ليلة سهرة، في طرقة العنبر أول الأمر، ثم في المسرح بعد بنائه. وكان نجما هذه السهرات الرمضانية بلا منازع، شاعر العامية الكبير (المرحوم) فؤاد حداد، والمهندس الشاب (وقتها) محمد حمام.

ففي رمضان ١٩٦١، كان فؤاد حداد يتلو على المسجونين والمعتقلين كل ليلة جزءا من ملحمته الشعرية الرائعة "الشاطر حسن"، التي قدمها بعد ذلك على حلقات في التليفزيون. وكان يسحر الجميع بجمال شعره وروعة إلقائه، فيعيشون معه مغامرات الشاطر حسن، الذي ينتصر دائما للحق، ويصارع ضد الباطل في كل مكان، باحثا عن ست الحسن والجمال، أو مخلصا إياها من الأخطار التي تتعرض لها، أو يحقق لها شيئا طلبته منه . وكانت بعض المقاطع قد تم تلحينها، ويغنيها محمد حمام بصوته "الإفريقي العميق"، كما وصفه (المرحوم) الدكتور لويس عوض.

من جهة أخرى، كان محمد حمام، بعد انتهاء فؤاد حداد من الجزء الخاص بالليلة من "الشاطر حسن"، يغني بعض الأغاني النوبية، بعد أن يشرح الأغنية والمناسبة التي تغنى فيها.

وكان زملاء آخرون يشاركون في هذه السهرات، سواء بأغان أو برواية ذكريات طريفة، أو ببعض النكات، أو غير ذلك من سبل الترفيه.

وفي عامي ١٩٦٢ و١٩٦٣، وعلى خشبة المسرح الذي كان بناؤه فد

اكتمل،كان فؤاد حداد يتلو "المسحراتي"، تلك المقطوعات الشعرية التي لاقت نجاحا منقطع النظير عندما أنشدها هي الأخرى في التليفزيون، بالإضافة طبعا لما يقدمه الزملاء الآخرون لتمضية تلك السهرات.

وقد ساهمت هذه السهرات في أن يعيش المسجونون والمعتقلون في جو رمضاني، قد يكون مختلفا عن السهرات الرمضانية في الخارج، لكنه على أية حال جو يختلف عما يعيشونه كل يوم، ويجعل من ليالي رمضان شيئا مميزا في السجن، لا تزول من ذاكرة من عاشوها.

ولم تكن السهرات الرمضانية أو سهرات العروض المسرحية، هي النشاط الترفيهي الوحيد في الواحات أو في غيرها من السجون.

فخلال الفترة التي كانت الزنازين فيها تغلق أبوابها عند غروب الشمس، كان المسجونون والمعتقلون في معظم الزنازين – إن لم يكن كلها – ينظمون نشاطا ترفيهيا بعد تناول طعام العشاء والشاي. وكان هذا النشاط يختلف باختلاف الزنزانة. وسنحاول أن نعطي أمثلة قليلة عن مثل هذا النشاط.

فمن أبسط أنواع هذا النشاط الترفيهي، أن يقوم زميل يتم اختياره بالقرعة، بتلاوة بيت من الشعر العربي (القديم في العادة). وعلى الزميل الذي يليه أن يقول فورا بيتا آخر من قصيدة أخرى، يبدأ بنفس الحرف الذي انتهى به البيت الأول، وهكذا. وإذا تردد الزميل الذي عليه الدور، أو صمت لمدة تزيد عن خمس ثوان، ينتقل الدور على الزميل الذي يليه، ويخرج من اللعبة من يفشل في تذكر بيت شعري يبدأ بالحرف الأخير من آخر بيت قيل. ويستمر اللعب هكذا حتى يخرج فائز

واحد في آخر اللعبة، ثم تبدأ الدورة من جديد بجميع سكان الزنزانة. وأذكر أن الزميلين محمد مستجير وإبراهيم فتحي كانا هما الفائزان في معظم الأحيان في الزنزانة التي كنت بها.

وكانت تنظم أيضا حفلات سمر، يتم الإعداد لها بدقة قبلها بيومين على الأقل. وفي هذه الحفلات كانت تقدم فقرات تشبه إلى حد بعيد الفقرات التي كان طلبة الجامعة يقدمونها في معسكراتهم الصيفية، لكن يضاف إليها فقرات أخرى، مثل إجراء "محاكمة عسكرية" كاريكاتيرية لأحد الزملاء، على غرار المحاكمات العسكرية التي كان السياسيون يتعرضون لها أيامها، ومسابقات مسلية وطريفة في المعلومات العامة.

وكان يتم أحيانا تأليف مقدمة وخاتمة غنائية لحفلة السمر. وأذكر في هذا الصدد أن الزميل نبيل الهلالي ألف أغنية طريفة على لحن مقدمة المسلسل الإذاعي الذي حقق عام ١٩٥٧ نجاحا منقطع النظير، "حسن ونعيمة" للشاعر المرحوم عبد الرحمن الخميسي، والذي تحول في العام التالي إلى فيلم سينمائي أخرجه هنري بركات ومثلت فيه لأول مرة الفاتنة المتألقة سعاد حسني.

كذلك كان هناك عدد من "المجلات الناطقة"، قبل أن يصبح الورق والأقلام متوفرة. وكانت هذه المجلات الناطقة على مستوى عال. أذكر مثلا أن (المرحوم) إبراهيم عامر، نائب رئيس تحرير جريدة "الجمهورية" الأسبق ومدير تحرير مجلة "المصور" كان يقدم في مجلة "الأفق" مسلسلا أسبوعيا عن شارلي شابلن عنوانه "عصا وقبعة"، بدأه بالصبي الصغير ذي الأربعة عشر عاما، الذي يقدم فقرات ضاحكة في إحدى حانات لندن، وانتهى بالممثل العالمي الفريد الذي أخرج ومثل العديد من الأفلام منها على سبيل المثال "أضواء المسرح" و"مسيو فيردو" و"ملك

في نيويورك" و "العصور الحديثة". وكانت هذه المجلات تضم مقـــالات وتعليقـــات وأخبارا، بل وطرائف. وقد تألق في المقالات السياسية الساخرة رئيـــس تحريـــر "الأفق" الصحفي الكبير الزميل (المرحوم) فيليب جلاب، الذي كـــان حتـــى وفاتـــه المبكرة رئيسا لتحرير جريدة "الأهالي". وكانت هذه "المقالات الناطقة" تثير كثـــيرا من التعليقات والمناقشات بسبب موهبة فيليب جـــلاب الفـــذة علـــى إثـــارة أهـــم المشكلات وأعقدها بصورة مبسطة ولكن عميقة، وفـــي قـــالب فكـــاهي أحيانـــا، وبسخرية مريرة أحيانا أخرى.

تنظيم الأحوال المعيشية

"الحياة العامة"

كانت الحياة المعيشية في السجن منظمة إلى حد بعيد. وإذا ضربنا مثلا بالفترة التي كانت الزنازين فيها مغلقة على المسجونين والمعتقلين منذ ساعة الغروب وحتى صباح اليوم التالي، كان يتم توزيع المهام على المقيمين في الزنزانة، والذين كان عددهم يتراوح ــ كما سبق القول ــ بين اثني عشر وخمسة عشر شخصا. فكان هناك اثنان لإعادة طهي الطعام (كما سيأتي فيما بعد)، يتبادلان العمل كما يحلو لهما. وكان هناك واحد مهمته عمل الشاي بعد العشاء يوميا وتوزيعه على الجميع. وكان هناك اثنان أو ثلاثة مهمتهم ملئ جرادل مياه الشرب، ولفهما بالخيش، وبل هذا الخيش باستمرار ووضع الجردل في مكان به تيار هواء حتى يكون الماء باردا بصفة مستمرة (بل إنه في الواقع كان مثلجا تقريبا، لأن تيارات الهواء كانت لا تتوقف). وكان هناك ثلاثة مهمتهم غسل أواني الطعام وصفها في مكانها الخاص بعد تناول وجبات الطعام. والباقون كانت مهمتهم العناية بنظافة الزنزانة، ومسح أرضيتها مرتين في اليوم. أما النظافة العامة لطرقات العنبر، فكانت مسئولية زنزانة من الزنازين العشرين بالتناوب كل يوم.

وكان تنظيم المالية العامة هي إحدى الوسائل الهامة لكي تصبح الحياة في السجن محتملة. كان من حق كل مسجون ومعتقل أن يتلقى من أهله في الخارج

أي مبلغ من المال، يوضع في أمانات السجن، ويسجل في دفاتر الكانتين. وكان من حق كل من له أمانات أن يشتري من الكانتين ما يتوفر فيه، في حدود عشرة جنيهات في الشهر (وهو مبلغ كبير وقتها). وكانت البضائع التي توجد في الكانتين عادة هي، إلى جانب السجائر والكبريت، الطحينة والحلاوة الطحينية، وبعض أنواع البسكويت، وبعض أنواع العلب المحفوظة (مثل اللانشون والبلوبيف وسمك التونة والسردين، واللبن المركز والخضروات المطهوة... الخ)، والزبد، بل وعلب السمن البلدي. ويخصم موظف الكانتين ثمن ما اشتراه المسجون أو المعتقل من حسابه المدون لديه في الدفاتر، في حدود الجنيهات العشرة كل شهر.

ولما كان العدد الأكبر من المسجونين والمعتقلين ينتمون لتنظيمات مختلفة، إلى جانب المستقلين، فقد كان من الضروري أن يتفق المسئولون عن تمثيلهم في جماعة لتنظيم المالية العامة للمجموع، ويشكلون لجنة تسمى لجنة الحياة العامة لإدارة هذه المالية. لذلك كانت تحدد نسبة ما يذهب إلى لجنة الحياة العامة من كل مبلغ يدخل أمانات كل مسجون ومعتقل. وكانت هذه النسبة تتراوح غالبا ما بين ٧٠ و٧٥ في المائة، ونادرا ما كانت أقل من ذلك. أما الباقي، فكان كل تنظيم يحدد ما يتركه لصاحب المال وما يحتاجه للعمل الحزبي. وهكذا كان النصيب الخاص للفرد الذي ينتمي لأحد التنظيمات مما يرسله له أهله يتراوح عادة ما بين ٥ و ١٠ في المائة. أما المستقلون، فإن من يقبل منهم الانضمام إلى نظام الحياة العامة (وكانت الأغلبية الساحقة منهم تنضم إليه)، فهم يحتفظون لأنفسهم بما تبقى لهم بعد دفع نصيب الحياة العامة. وكان بعضهم يقتسم ما تبقى له أو نسبة منه مع باقي أفراد الزنزانة التي يوجد بها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يصعب جدا على المدخن أن يكتفي بسيجارتين

يوميا في أسوأ الأحوال، أو بخمس في أفضلها. وكان لا بد من ابتكار حل لهذه المشكلة. وكان الحل هو أن يشترك كل زميلين أو ثلاثة فيما أطلق عليه اسم "الكميونة"، فيجمعون نصيبهم اليومي من السجائر ويدخنون سويا سيجارة واحدة كل بضع ساعات. أما عندما يكون نصيب الفرد سيجارتين فقط، فقد كان يتم قسم السيجارة الواحدة إلى قسمين، ويتم تدخين نصف سيجارة بنفس الصورة في المرة الواحدة. ولكي لا يفقد المدخنون أي جزء من الدخان، كانوا يصنعون من غصون الأشجار الصغيرة "فما" يضعون فيه نصف السيجارة، ويدخنونه حتى الثمالة!

ولما كان كل فرد لا يحق له أن يستفيد بأكثر من عشر جنيهات في الشهر من الكانتين، فقد كانت أسر الزملاء الموسرين ترسل حوالات بريدية بأسماء الزملاء الذين كانت ظروف أسرهم لا تسمح لها بإرسال نقود لهم، زيادة عن حوالات الجنيهات العشرة التي يرسلونها لذويهم.

كانت لجنة الحياة العامة تتشكل من خمسة أو ستة أشخاص، يمثل كل منهم تنظيما، بالإضافة إلى ممثل عن المستقلين. وكان لا بد لقراراتها أن تكون بإجماع الآراء، إذ أنه لا يتصور أن يقبل تنظيم ما بأن تتفق التنظيمات الأخرى وتفرض عليه أمرا. فإذا استحال التوصل إلى الإجماع، يمكن البحث عن حل آخر. أما إذا تعذر الوصول إلى اتفاق في إطار اللجنة، فإن الأمر يحال إلى كبار مسئولي التنظيمات لكي يجتمعوا سويا ويتفقوا على حل. لكن ذلك لم يحدث ــ في حدود علمي ــ إلا مرة واحدة في سجن الواحات على الأقل.

أما في إطار لجنة الحياة العامة ذاتها، فكثيرا ما كانت تحدث خلافات حادة. لكن هذه الخلافات في معظم الحالات لم تكن مطلقا ذات طابع سياسي، وإنما بسبب

تصادم نظرتين مختلفتين للأمور. فبعض الزملاء كان يرى أن اللجنة يجب أن يكون تحت يدها احتياطي من السجائر والمأكولات، حتى إذا ما انخفض الدخل في أحد الشهور لسبب أو آخر، لا تضطر اللجنة إلى تخفيض نصيب الفرد، بينما يرى الآخرون أن ظروف السجن غير مضمونة، وأنه من الأفضل توزيع كل ما لديها، حتى لو اضطرت لتخفيض نصيب الفرد إذا ما انخفض الدخل لسبب أو آخر.

وبصورة عامة، كانت اللجنة تحدد الاحتياجات من كل صنف يمكن شراءه من الكانتين، وتحدد لكل زميل ما يجب عليه شراءه في حدود النسبة المخصصة لها، ثم تجمع كل ما تم شراءه وتقوم بعد ذلك بتوزيعه على الزنازين بنسبة من فيها من الأفراد، باستثناء السجائر، التي كانت توزع صباح كل يوم، بعد تحديد نصيب الفرد، وتحديد احتياجات الخدمات الخاصة (مثل نصيب المدرسين في جامعة الشهيد شعبان حافظ، والمحاضرين، وأعضاء الفرقة المسرحية التي تتأهب لتقديم عرض، وغير ذلك من ألوان النشاط العام التي يتقرر لها نصيب إضافي من السجائر) وما يقدمه أعضاء اللجنة ومندوبو الاتصال بالإدارة للسجانة كل يوم (ولم يكن كثيرا، وإنما للتحية فقط).

وكانت تحدث بالطبع مشاحنات خفيفة من حين لآخر بين الزملاء وأعضاء لجنة الحياة العامة، لكنها كانت تنتهي عادة بمزحة أو نكتة. أذكر مثلا أن أحد الزملاء طلب من عضو لجنة الحياة العامة الذي ينتمي لنفس التنظيم الذي هو عضو فيه، ذات يوم أن يعطيه سيجارة إضافية لأنه يكتب موضوعا عويصا يحتاج منه لتركيز شديد. وبالطبع، رفض عضو اللجنة ذلك الطلب وأنبه عليه، فما كان من الزميل إلا أن قال له :

– أنت تريد أن تقنعنا أنك عادل مثل عمر بن الخطاب، لكنك في الواقع عمر بن الخطاف!

وصار هذا الاسم كنية لهذا الزميل بعد ذلك.

وكانت إدارة السجن، بأوامر من المباحث العامة على الأرجح، تحاول — وبصفة خاصة في الظروف الصعبة — أن تمنع عمل لجنة الحياة العامة، فكانت مثلا تصادر السجائر والمأكولات التي يشتريها المسجونون والمعتقلون رسميا من الكانتين إذا وجدت كمية كبيرة منها عند أحد الزملاء. وكان الرد على ذلك هو أن يحتفظ كل زميل عنده بما اشتراه فقط، ويتصرف فيه بناء على تعليمات لجنة الحياة العامة. وعلى الرغم من تعقيد هذه العملية، فإنها كانت تتم على خير ما يرام.

وقد أدهشنا أن الإخوان المسلمين، الذين كانوا معنا في نفس السجن، لم يطبقوا هذا النظامأو أي نظام مشابه. فقد كان كل "أخ" يحتفظ لنفسه بما يصله من أموال، بل وكان إذا تعطف على أحد "الإخوة" بشيء من المأكولات، فإنه كان يعتبر أنه يتصدق عليه. وكان بعضهم يدفع لأخ آخر لكي يخدمه ويغسل له ثيابه وينظف له مكان نومه وما إلى ذلك. وأعترف أن هذا الموقف أصابني – ولا زال يصيبني – بالدهشة.

أما مندوبو الاتصال بالإدارة، فكان يختارهم المسئولون السياسيون. ولم يكن يحق لأحد غيرهم الاتصال بإدارة السجن، حتى لو طلبت إدارة السجن مسجونا، كان عليه أن يقول إن المندوب هو الذي يمثله، أو يتوجه إلى الإدارة مع المندوب في الحالات التي كانت هناك فعلا مشكلة خاصة بالزميل المطلوب يتعين وجوده في مبنى الإدارة بالفعل. وكان المقصود من هذا الإجراء ألا تستفرد إدارة السجن بأحد المسجونين أو المعتقلين وتفرض عليه شيئا ضد مصلحته أو ضد مصلحة مجموع المسجونين والمعتقلين.

وكان يتم اختيار مندوبي الإدارة من بين الزملاء المشـهود لـهم بـالصبر والمرح والديبلوماسية في التعامل. أما المستقلون، فلم يكن هنـاك مـا يقيدهـم باحترام هذه القاعدة، وإن كان معظمهم قد احترمها.

ومن أبرز الزملاء الذين نجحوا في أن يكونوا أحسن الممثلين للمسـجونين والمعتقلين لدى إدارة السجن (المرحوم) سعد عبد اللطيف المحامي السـكندري، ووليم طنيوس أفرايم رجل الأعمال الناجح الذي كان يطلق عليه لقب ملك الأناقـة، نظرا لعنايته الشديدة بنظافة ملابسه وكيها (وهي على أية حال ملابس السـجن)، وسيد عبد الله المحاسب، الزميل الرقيق الحازم في آن واحد، و (المرحوم) محمـد شبل إسماعيل، إبن العمدة الصعيدي، الذي انتخب بعد خروجه من السجن ببضـع سنوات نائبا عن بني سويف في مجلس الشعب.

النشاط الرياضي

لم يكن النشاط الرياضي ضروريا خلال عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١ ، فقد كان المعتقلون يقومون بجهد عضلي فرضته عليهم السلطات فرضا. كانوا يحفرون قنوات ويخططون حقولا في الصحراء بدعوى استصلاح الأرض انتظارا لوصول مياه لم تصل أبدا. واستمر بذل المجهود العضلي عندما أخذوا يستصلحون حقا الأرض التي أصبحت مزرعة السجن. وكل هذه الجهود العضلية كانت في واقع الأمر رياضة للأجسام، تغني عن تنظيم نشاط رياضي.

ولكن، بعد الانتهاء من استصلاح أرض المزرعة، توقف بذل المجهود العضلي، لذلك كان لا بد من القيام بنشاط رياضي، حتى تظل الحالة الصحية للمسجونين والمعتقلين في المستوى اللازم لصيانتها.

وكان حمام السباحة، الذي تم حفره لتجميع المياه اللازمة لري المزرعة، هو بداية الاهتمام بالنشاط الرياضي.

كان هذا الحوض، كما سبق الإشارة، ذا جدران من الصلصال والطين، جري "تدبيشها" فيما بعد كما سبق، لذلك فهو لم يكن حمام سباحة نموذجيا، لكنه كان يفي بحاجة من يريد ممارسة رياضة السباحة. لم يكن هذا الحمام عميقا، فعمقه لم يتجاوز مترا واحدا، لكن ذلك كان كافيا. أما طوله فكان نحو اثني عشر مترا وعرضه نحو ستة أمتار.

وقد قام الزملاء بعمل أردية للسباحة من سراويل بدل السجن، فكانت كلها من اللونين الأبيض أو الأزرق، متشابهة الشكل. وكان "حمام السباحة" هذا يمتلئ

بالسباحين ساعة العصر، ويظل بعضهم يمارس رياضتـه المفضلـة حتـى قبـل الغروب بقليل.

وساهمت ممارسة رياضة السباحة في الحفاظ على نشاط الزمـلاء وعلـى سلامة أجسادهم. وكان الزملاء الأطباء كثـيرا مـا يدفعـون الزمـلاء الذيـن لا يشاركون في هذا النشاط إلى ممارسته.

وكانت رياضة السير تحظى هي الأخرى بحظ وافر من الممارسة. وكثير من الناس لا يعدون السير رياضة، لكنهم يخطئون خطأ كبيرا. فمعظم الأطبـاء فـي العالم كله ينصحون الناس برياضة السير، لأن رياضة الجري أو الركض تضعـف القلب على المدى الطويل، بينما رياضة السير على العكس من ذلك، تساعد علـى تنشيط القلب بدون أن ترهقه.

كان هناك طريق مسفلت يمتد من مبنى إدارة السجن وحتى الباب الخلفـي للسجن، حيث الطريق الذي يؤدي إلى منازل المأمور والضباط والسجانة، وإلـى المزرعة ثم يتوقف. وكان هذا هو الطريق الذي تسلكه السيارات التي تقل المأمور والضباط من منازلهم إلى مكاتبهم في الصباح، وبالعكس بعد إغلاق السجن عنـد الغروب. وكان الزملاء يقطعون الطريق الممتد داخل السجن – الذي يبلغ طولـه نحو ثلاثمائة متر – ذهابا وإيابا وهم يتبادلون الأحـاديث، عشـرات وعشـرات المرات. وكان يمكنك أن ترى، في أي ساعة مـن سـاعات النـهار، العشـرات، وأحيانا المئات، من الزملاء، يقطعون هذا لطريق – الذي أطلقـوا عليـه اسـم "الكورنيش" – ذهابا وإيابا وهم يتبادلون الأحاديث. وكان يمكنك أن تستمع إلـى أحاديث في السياسة وفي الأدب وفي المسرح وفي مختلف أنواع الفنـون، كمـا تستمع إلى من يروي لأحد أصدقائه جانبا من حياته، أو يعترف له بأدق أسـراره العائلية، أو يحكي له تجاربه مع التنظيم الذي ينتمي إليه.. باختصار، كان الزملاء يتبادلون خلال سيرهم جميع أنواع الأحاديث التي يمكن أن تتخيلها.

وقد يكون من الصعب على من لم يمر بتجربة السجن لمدة طويلة أن يدرك كم يكون المسجون أو المعتقل في حاجة إلى أن يقص جوانب من حياته لصديق، وكأنه يريد أن يثبت له، بل ربما لنفسه أولا، أن حياته خارج السجن كانت ذات قيمة ومعنى، وأنها لم تكن مجرد أيام عاشها كما يعيش الأشخاص الآخرون. فهو يشعر في السجن أن الحياة متوقفة بالنسبة له، وأنه لم يحقق الكثير مما كان يطمح إلى تحقيقه، لذلك فهو يريد أن يؤكد، ولو لنفسه فقط، أنه أنجز شيئا ما قبل دخوله السجن.

على أية حال، لا شك أن هذا السير أيضا ساهم في احتفاظ الزملاء بلياقتهم البدنية.

ولكن كل ذلك لم يمنع الزملاء من محاولة ابتكار أنواع أخرى من النشاط الرياضي المسلية. فقد أقاموا خلف المسرح مكانا كانوا يمارسون فيه رياضة رفع الأثقال. استخدموا حديدا من حديد التسليح كعوارض، إحداها طويلة، والأخريين قصيرتين. فالطويلة لرفع الأثقال باليدين، والقصيرتان تستخدم واحدة لكل يد. ثم صبوا اسطوانات من الأسمنت والزلط، مختلفة الأوزان، لكن من كل وزن اسطوانتين، في وسط كل منها ثقب يدخل فيه العارض الحديدي، فتصبح مثل أدوات رياضة حمل الأثقال العادية. وكان يمكن وضع أكثر من اسطوانة في العارض الحديدي. كما أنشأوا "دكة" من الأسمنت، يستطيع من يمارس هذه الرياضة أن يستلقي عليها، ويرفع الأثقال وهو راقد على ظهره.

كذلك أنشأ المسجونون والمعتقلون ملعبا "للتنس" بجوار المسرح. قاموا بدك الأرض بقدر الإمكان، ثم وضعوا شبكة للفصل بين اللاعبين، وكانوا يخططون الملعب بالجير كلما أرادوا اللعب. لم يكن لديهم مضارب تنس، فكانوا يستعيضون

عنها بمضارب خشبية، من تلك التي تستخدم على شواطئ البحار. أما الكـــرات، فكانت كرات تنس حقيقية.

وكانت تقام مسابقات في اللعب. وفي معظم الأحيان، كان الزميل حسني تمام هو الأول في ترتيب اللاعبين.

وكان المسجونون والمعتقلون، وبصفة خاصة صغار السن، يلعبون أيضـــا كرة القدم، سواء بكرة تنس أو بكرة يصنعونها من بقايا الملابس القديمة.

وهكذا كان الزملاء يقومون بألوان من النشاط الرياضي التي تســمح بــها الإمكانيات التي لديهم ليحافظوا على لياقتهم البدنية، ولكي يسلوا أنفسهم.

طهو الطعام

أجاركم الله من طعام السجن.. وباستثناء الخبز، فإن تناولـــه هـــو عمليـــة تعذيب في حد ذاته. ونظام الطعام أولا في جميـــع الســـجون المصريـــة (وليـــس المعتقلات) يتلخص في الجبن يوما و العسل الأسود في اليـــــوم التـــالي، لطعـــام الإفطار. والجبن يطلقون عليه اسم "جبن قريش". لكنها تسمية على غير مســـمى. فقطعة الجبن عبارة عن كتلة بيضاء مما يشبه الجير المتكلس في حجم قبضة اليد لكل ثلاثة من المسجونين. وتفتيتها يحتاج لشاكوش وليس أقل مـــن ذلـــك. فـــإذا نجحت في تفتيت هذه القطعة، تحولت إلى شيء أقرب إلـــى الحصـــى الصغـــير. ويصعب جدا أكلها بدون إضافة شيء من الزيت عليها، لكن إدارة السجن لا تقـــدم هذا الزيت، وإنما يمكن شراءه - على حساب المسجون - مـــن الكـــانتين. أمـــا بالنسبة للعسل الأسود، فإن "المتعهد" - أي الرجل الذي رست عليه مناقصة توريد الطعام للسجن - يخلطه بالماء، بنسب متساوية، أي أن نصف الكمية من العســـل ونصفها الأخر من الماء، حتى يحقق ربحا من عملية التوريـــد. ولا يعلـــم إلا الله نوع الماء الذي يضيفه للعسل. وتكون النتيجة أن طعم العسل يكون - في معظـــم الأيام - حامضا، وبصفة خاصة في فصل الصيف، كما أنه يكون سائلا وليست له كثافة العسل الأسود المعروفة. ويضطر المسجون أن يخلطه بكمية كبـــــيرة مـــن الطحينة لكي يستطيع ازدراده. والطحينة بدورها يمكن، لمن يملـــك نقـــودا فـــي الأمانات، شراءها من الكانتين.

أما طعام الغداء، فهو الفول جميع أيام الأسبوع بلا استثناء، بالإضافة إلـــى أنه - أي الفول - هو طعام العشاء أيضا يومي الخميس والجمعة، وأيام الإجازات

الرسمية. ولا يمكن لخيالكم تصور نوع الفول الذي يقدم للمسجونين، فهو لا يمت بأي صلة للفول المدمس الذي يأكله البشر، وإنما هو فول العلف الذي يقدم غـذاء للحيوانات. فحبته يبلغ حجمها أربعة أضعاف حجم حبة الفول المدمس. ولا يتـــم تدميسه بالطبع، وإنما يجري غليه في الماء حتى يصبح - بالكاد - قابلا للمضغ. ولو أن الأمر اقتصر على ذلك لكان هينا. وأرجو ألا أثير الغثيـــان عنـــد القــارئ عندما أشير إلى أن كل حبة من هذا الفول تضم ما بين أربع واثني عشرة "سوسة" (وهذه ليست مبالغة، فقد كنا نعد عدد السوس في كل حبة بالفعل) . ولا يمكـــن بكل تأكيد وضع مثل هذا الفول في الفم. لذلك كان لا بد من تقشـــيره حبـــة حبـــة (وهي عملية ليست صعبة)، ثم إخراج السوس من كل واحدة منها، ثم هرس مـــا تبقى مع شيء من الزيت والطحينة، حتى يمكن أكل هذا الفول.

وطعام العشاء خلال الأيام الخمسة الباقية من الأسبوع عبارة عن كمية مـن الأرز غير جيد الطهي، وسائل ليس له طعم ولا رائحة، علقت به قطع صغيرة من الخضار يصعب جدا معرفة كنهه، بالإضافة إلى قطعة لا بأس بها من اللحم، لكـــن كثيرا ما كان "الشغت" يشكل الجزء الأكبر منها.

هذا هو باختصار طعام السجون في مصر.

أما في المعتقلات التي تشرف عليها المباحث العامة مباشرة والتي تتكـــون إدارتها من ضباط شرطة تختارهم المباحث العامة وليس من ضباط من مصلحـــة السجون، مثل معتقلي القلعة والفيوم، فالطعام أفضل من ذلك كثيرا، كما أن كمياته كافية بالفعل. فرجال المباحث العامة يراقبون المتعـــهدين مراقبـــة حقيقيـــة، ولا يسمحون لصغار الموظفين الذين يتسلمون الطعـــام، بتقـــاضي الرشـــاوى مـــن المتعهدين ليتغاضوا عن الكم والكيف عند التسلم، مثلما هو الحال في الســـجون. كذلك فإن أنواع الطعام متنوعة، بحيث يمكن أن يعيش عليها الإنسان.

وإحقاقا للحق، فإن مأمور سجن الواحات (وهو سجن صغير جدا بالمقارنة بالسجون الأخرى) كان يراقب الأكل بقدر الإمكان. لذلك كان مستواه أفضل ألف مرة من مستواه في السجون الأخرى.فكان اللحم مثلا ممتازا. كما كان يقدم لطعام الغداء عدسا بدل الفول في معظم الأيام. وكان الفول، عندما يقدمونه، يكاد يكون خاليا من السوس. كما كان الجبن والعسل يؤكلان. ومع ذلك، فقد كان من الصعب أن يزدرد المسجونون الخضار بالطريقة التي يتم طهيه بها في مطبخ السجن. لذلك كان المسجونون والمعتقلون يشترون البصل والسمن من الواحة (عن طريق السجانة وحراس السجن)، ويعيدون طهيه في الزنازين، عندما كانت الزنازين تغلق أبوابها عليهم. وبعد أن أصبحت أبواب الزنازين لا تغلق ليلا أو نهارا، أقيم في طرف العنبر مطبخ كبير، كان يتم فيه طهي الطعام للجميع، خاصة وأنه أصبحت لديهم خضروات طازجة من المزرعة. وفي كلتا الحالتين، كان الطعام يصبح آدميا، بل ومستساغا.

والحقيقة أنه إذا كان الطعام مهما لأي إنسان، فإن أهميته تتزايد بالنسبة للمسجون. فهو الوسيلة الرئيسية التي يحافظ بها على صحته وعلى لياقته البدنية. فهو لا يستطيع تعويض نقصه بوسيلة أخرى، مثل تناول الفيتامينات أو الأدوية الأخرى.

وكان نفس الشيء تقريبا يتم في السجون الأخرى، التي تكون زنازينها صغيرة، تضم ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط. كانت إعادة طهي الطعام إذن تتم في كل السجون.

والطريقة البسيطة والبدائية لإشعال النار اللازمة للطهي كانت بإشعال "الحلاوة الطحينية" المخلوطة بورق الصحف، حتى تستمر في الاشتعال لأطول مدة

ممكنة. ولكن تلك الوسيلة كانت تستخدم في معتقلي القلعة والفيوم فقط، لأن "الحلاوة الطحينية" كانت تتوافر فيهما بكميات كبيرة من المتعهدين، وكثير من الزملاء لا يحبونها. أما في السجون الأخرى، فقد كان لا بد من ابتكار وسيلة بما هو متاح من إمكانيات لعمل نوع من المواقد يصلح للطهي. وهكذا تم اختراع "التُّوتُو"، وهو موقد بدائي يتم عمله من علب التونة والسلامون، يتم ملؤها بالكيروسين، ويعمل لها فتيل الإشعال من خيوط ملابس السجن. وأخذت صناعة "التُّوتُو" تتقدم إلى أن أصبح أشبه بموقد حقيقي. وكان من الناحية العملية فعالا جدا لطهي الطعام.

والغريب أننا أصبحنا نرى الآن في الأسواق المصرية موقدا هو أقرب إلى "التُّوتُو" الذي كان يصنعه المسجونون والمعتقلون في السجون المصرية، وهو مستورد من الصين الشعبية!..

والواقع أن طهي الطعام يعد أحد عناصر الحضارة الإنسانية. فلا يمكن لمجتمع متخلف أن يبدع أصنافا رفيعة من الوجبات، بل إن طعامها يكون بدائيا مثلها. والمجتمعات المتقدمة تبدع في إعداد الطعام بل وفي طريقة تقديمه. لذلك كان من الصعب على المسجونين والمعتقلين أن يتذوقوا بسهولة، طعاما رديئا إلى هذا الحد، وكان لا بد من إعادة التعامل معه حتى يصبح قابلا للأكل..

وكان الزملاء في بعض المناسبات يعدون مشروبا أطلقوا عليه اسم "الهوبهوب". وطريقة إعداد الهوبهوب هي جمع كمية من العسل الأسود، وخلطه بالماء بنسبة الثلث عسل والثلثين ماء، ثم تتم إذابة بضعة أقراص من خميرة البيرة في هذا الخليط، وإغلاق القنينة التي يوجد بها إغلاقا محكما جدا، ثم يتم دفنها تحت الأرض بمسافة نصف متر تقريبا لمدة أسبوع أو عشرة أيام. ويصبح

هذا المزيج نوعا رديئا من الخمر، لا بد من تجرع كمية كبيرة جدا منه كي يؤدي إلى السكر، لكن الكميات المتاحة منه لم تكن أبدا كبيرة، وإنما كانت تكفي على أي حال لأن يشعر شاربها بشيء من النشوة.

وعندما أصبحت ظروف السجن أكثر انفتاحا، أصبح من الممكن الحصول - تهريبا بالطبع - على عرق البلح من سكان الواحة الخارجة، بل وفي أحيان نادرة، على زجاجة ويسكي من الخارج.

لكن شرب هذه الخمور كان يتم للاحتفال بمناسبات خاصة لا تتكرر كثيرا، مثل الاحتفال بعيد ميلاد خاص لأحد الزملاء (كأن يدخل في عقد جديد مثلا) أو غير ذلك من المناسبات الهامة. وكانت ليلة رأس السنة أحد هذه المناسبات. لكنني أتحدث عن ذلك حتى أعطي صورة صادقة عن الحياة في سجن الواحات الخارجة.

النشاط في الظروف الصعبة

تحدثنا فيما سبق عن نشاط المسجونين والمعتقلين الشيوعيين في سجن الواحات الخارجة، عندما قررت السلطات أن وجودهم في ذلك المنفى يكفي "لعقابهم". لكن الأوضاع لم تكن كذلك طول الوقت ولا في جميع السجون. فقد كان المعتقلون الشيوعيون موزعين على عدة سجون ومعتقلات. فمنهم من كان في معتقل الفيوم، ومن كان في سجن القناطر الخيرية، ومن كان في أوردي ليمان أبي زعبل، بالإضافة إلى معتقل القلعة وسجن مصر، اللذان كانا مجرد محطتين مؤقتتين، لحين تحديد المكان الذي سينقل إليه نزلائهما.

وبالطبع، لم تكن الظروف في أي من هذه السجون والمعتقلات هي نفس ظروف سجن الواحات الخارجة. كانت أبواب الزنازين مغلقة معظم الوقت، والخروج إلى حوش السجن أو المعتقل لا تزيد عن نصف ساعة صباحا ونصف ساعة بعد الظهر. وحتى الاستحمام وقضاء الحاجة كانا محددين بوقت في الصباح ووقت بعد الظهر، لم يكن يتجاوز بحال ثلاثين دقيقة في كل مرة.

فهل استسلم المعتقلون في السجون والمعتقلات الأخرى لهذه الأوضاع، ووضعوا أيديهم على خدودهم في انتظار الإفراج عنهم أو نقلهم إلى الواحات؟

لم يحدث ذلك، وإنما حاول الزملاء بالوسائل القليلة التي تحت أيديهم، بل وبدون أية وسائل تقريبا، أن يتحدوا الظروف القاسية التي كانوا يعيشون في ظلها.

وكانت المعاملة في سجن أوردي ليمان أبي زعبل مثلا، قاسية إلى أبعد

الحدود، حتى أن ضرب المعتقلين بهراوات السجانة، كان يتم بصورة جماعية كل صباح قبل ذهابهم إلى المحاجر لتكسير حجارة البازلت ونقلها إلى مكان تخزينها، بينما عصي السجانة تلهب ظهورهم بلا تمييز أثناء عملهم. وفي هذا السجن قتل شهدي عطية الشافعي تحت وطأة الضرب.

في هذا السجن، الذي كان يتكون من ثلاثة عنابر، كل منها يضم نحو ستين معتقلا، كان الزملاء يقيمون كل ليلة بعد تناول طعام العشاء، حفلة سمر ومسابقات في المعلومات العامة، ينسون خلالها، ولو لمدة ساعتين أو أقل، ما يلاقونه من عذاب طوال اليوم. كما كانت تنظم فيه المحاضرات العامة والمجلات الناطقة. وقد كان هذا النشاط البسيط أروع مقاومة لصنوف التعذيب والقهر، مما سمح للزملاء بتجاوز هذه الظروف والخروج منها بدون أن تتأثر معنوياتهم كثيرا.

ولعل أغرب ما كان يحدث في هذا السجن الرهيب هو مباريات الشطرنج بدون رقعة ولا أحجار، أي بمجرد تبادل النقلات شفويا. لم يكن يستطيع ذلك بالطبع سوى عدد يعد على أصابع اليد الواحدة من الزملاء، أذكر منهم محمود أمين العالم و(المرحوم) الدكتور ثروت إلياس. ولم يكن الزملاء الذين يلعبون الشطرنج "مستظهرين" -كما كان العرب القدامى يسمون تلك الطريقة - في نفس العنبر دائما. ولما كان تبادل الحديث بين شخصين من عنبرين مختلفين محظور تماما، وعقابه مرير، فقد كان الزميلان اللذان يلعبان دورا، ينتهزان فرصة لقاء خاطف في الجبل أثناء نقل قفة من الحجر الذي تم تكسيره، لكي يتبادلا نقلة الشطرنج التالية. ويظلان يتبادلان النقلات طوال أيام وأيام، حتى يقول أحدهما للآخر "كش مات". ولم يحدث أن اختلف زميلان على وضع القطع في الرقعة،

سواء أثناء اللعب أو عند انتهائه. فهل كان كاتب روائي، مهما بلغ خياله، يستطيع أن يخترع شيئا كهذا؟!

وبمناسبة الشطرنج، فإن أول ما يفعله المسجونون والمعتقلون عندما يستقرون في سجن أو معتقل ما، هو أن يستخرجوا لباب الخبز ويقتصدوه، لكي يصنعوا منه قطع الشطرنج. البيضاء منها من لباب الخبز كما هو، والسوداء، يحرقون ورقا، ويخلطون رماده بلباب الخبز لصنعها. أما الرقعة، فكانوا يرسمونها على البطاطين الداكنة اللون بالصابون. وهكذا، فالشطرنج هو أول ما يقومون بصنعه ولعبه.

وكان الزملاء يتفننون في عمل قطع الشطرنج، حتى أن بعضها كان قطعا فنية فعلا.

ونفس الأمر يحدث بالنسبة للعبة الطاولة، وإن كان هواتها في جميع السجون والمعتقلات التي قدر لي أن أدخلها، أقل عددا بصورة ملحوظة من هواة الشطرنج. وكان زهر الطاولة يتم صنعه بتسييح أيدي فرشاة الأسنان، حتى يمكن تشكيلها. ويكون الزميل الذي يصنعها قد أعد كورا صغيرة من ورق علب السجائر المفضض، يغرسها في الأضلع الستة التي شكلها مما كان يد فرشاة أسنان، وهي لا تزال ساخنة، ويتركها حتى تبرد، ثم يقوم بصقلها حتى تصبح زهرة طاولة جميلة. وكان الزهر بالطبع متعدد الألوان، مثلما تتعدد ألوان فرش الأسنان.

وكثيرا ما كانت تنظم مسابقات في الشطرنج، يشارك فيها كل من يرغب في ذلك، وتجري التصفيات إلى أن يفوز أحد الزملاء بالبطولة. وكان عدد لا بأس به ممن لا يشاركون في المسابقة، يتابعون المباريات الهامة باهتمام حقيقي.

وورق اللعب (الكوتشينة) كان أيضا متوفرا. وهو يصنع من كرتون علب السجائر الفارغة. ويقوم الزملاء برسم الأوراق ورقة ورقة على الجانب الداخلي من العلبة بعد فصل أجزائها، حتى تكتمل أوراق اللعب. وهنا أيضا كانوا يتفننون في رسم أوراق اللعب، بحيث تصبح عملا فنيا جميلا.

وكانت لعبة "البريدج" هي لعبتهم المفضلة بالكوتشينة، فهي لعبة لا تعتمد على الحظ، وإنما تحتاج لحساب معقد يستدعي درجة عالية من التركيز. لكن ذلك لا يمنع من أنهم كانوا يلعبون ألعابا أخرى بالورق، مثل الكومي وغيره من الألعاب المسلية.

وحتى في السجون التي لا تضم زنازينها أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مثل سجن القناطر، كان هؤلاء يحاولون، بعد تناول طعام عشائهم، أن يقضوا أمسياتهم بطريقة مفيدة، أو على الأقل مسلية. فبالى جانب ألعاب الشطرنج والطاولة والكوتشينة، كانوا ينظمون كل ليلتين أو ثلاثة، محاضرة يلقيها أحدهم في موضوع يعرفه معرفة جيدة. فالبعض كان يتحدث مثلا عن التاريخ الفرعوني، وبصفة خاصة تلك الجوانب التي لا نقرأها في الكتب العادية أو في كتب المدارس، والبعض كان يتحدث عن الأدب والشعر العربي، وعن دولة غرناطة في الأندلس، وكان المحامون مثلا يلقون محاضرات عن فلسفة القانون ونظرياته العامة، ... الخ.

ولكي يستفيد الجميع، كان الزملاء يتنقلون من زنزانة لأخرى حتى يلقون محاضراتهم بعد طعام العشاء، لذلك فقد كانونا يتبادلون أماكنهم في الزنازين لليلة، على الرغم من أن ذلك كان ممنوعا منعا باتا.



خاتمة

وأرجو ألا يعد القارئ كل ما رويته فيما سبق محاولة مني أن أجمل صـورة المسجونين والمعتقلين الشيوعيين وأن أصورهم على أنهم رجـــال مـــن معـــدن خاص، فذلك لم يكن هدفي على الإطلاق. فإنني أعتقد أن كل إنسان تقريبا لا بـــد له، إذا ما واجهته ظروف صعبة، أن يحاول أن يكيف حياته بأفضل طريقة ممكنة، وأن معدن الإنسان الحقيقي لا بد سيظهر في مثل هذه الظروف. واسمحوا لـــي أن أضرب مثلا على ذلك (إلى جانب مثل عبده أمين، وإن يكن بصورة مختلفة تماما، لكنها تِوضح ما أقول).

عندما كان المعتقلون في سجن القلعة انتظارا لترحيلهم إلى سجن الواحـات، وجدوا بينهم شابا لا يعرفه أحد. صحيح أن كل معتقل كان يعرف عددا محدودا من المعتقلين معه، لكن كان أصل كل منهم معروفا تماما، من هو ولأي تنظيم ينتمـــي. حتى المستقلين كان سبب اعتقالهم وأمرهم معروفين تماما، باستثناء هذا الشـــاب. وكان الرأي الراجح في اليومين الأولين أنه دسيسة من المباحث العامة. لكن هـذا الرأي لم يكن يتفق مع المنطق. فللمباحث العامة أعين بين الشيوعيين، حتـــى وإن لم يكن زملاءهم يعرفون من هم على وجه التحديد، فإن وجودهم لم يكـــن محـــل شك. فلماذا تضع المباحث العامة شخصا لا بد أن يشك فيه الجميع من أول لحظـة لأنه مجهول تماما؟

وقال الشاب (الذي نسيت اسمه بكل أسف) إنه يهودي الديانة، وأنـــه مـــن أسرة فقيرة تقطن حي شبرا، وأنه كان تلميذا في الثانوية العامة، عندما أخبرتـــه

شقيقته التي تكبره بعام أن ضابط مباحث القسم المجاور لمنزلهم، يعاكسها بصورة سمجة. وساء الشاب – الذي كان يلعب الملاكمة – أن يحدث ذلك، فانتظر ضابط مباحث القسم وضربه. وتوعده الضابط بالعقاب، فأصبح الشاب لا يسير إلا وسط زملائه في المدرسة وفي ممارسة الملاكمة.

ويبدو أن ضابط مباحث القسم لم يكن يريد الدخول في معركة صاخبة مع الشاب وزملائه، وأنه كان يفكر في طريقة للانتقام، فوجد الفرصة ملائمة عندما طلبت منه المباحث العامة قائمة بأسماء الشيوعيين النشطين في دائرة القسم، فوضع اسم الشاب على رأس القائمة. وهكذا – حسب روايته التي اتضحت صحتها فيما بعد – تم إلقاء القبض عليه وإرساله إلى معتقل القلعة. وأقسم الشاب بأنه لم يكن قد سمع عن الشيوعية إلا شذرات بسيطة، وأنه لم يكن يتخيل ماذا يكون عليه "شكل" الشيوعيين، ولا يعرف شيئا عن أفكارهم أو معتقداتهم.

وأخذ الزملاء يتناقشون بين مصدق وغير مصدق، لكن رأيهم استقر على معاملته معاملة عادية، وتوزيع السجائر والمأكولات عليه مثل الباقين تماما.

وبعد مضي نحو شهر، نادت عليه إدارة المعتقل طالبة منه أن يجمع متعلقاته لأنه سيتم الإفراج عنه. وابتسم الزملاء الذين كانوا يشكون أنه دسيسة المباحث قائلين إن مسئولي الأمن اكتشفوا أن لعبتهم لم تنطلي على المعتقلين، فقرروا الإفراج عنه.

وبعد غياب استمر أسبوعا، عاد الشاب إلى المعتقل مرة أخرى، وقال إن اللواء حسن المصيلحي، (وكان وقتها مفتشا لمباحث القاهرة قبل أن يصبح بعد ذلك مديرا للمباحث العامة) استقبله وأخبره بأنه عرف قصة ضابط مباحث القسم، وأنه قرر نقله ضابط شرطة عادي في أحد أقسام أقاصي الصعيد عقابا له،

وأضاف أنه لم يفعل ذلك مراضاة للشاب، وإنما لأن ضابط المباحث الذي يخلط بين عمله وخلافاته الشخصية، سيهمل بلا شك عمله، مما يتيح للشيوعيين الحقيقيين أن يفلتوا من المراقبة. وبعد أن هنأه بالإفراج، أرسله إلى الضابط "المكلف بإتمام إجراءات الإفراج". وطلب منه هذا الضابط أن يكتب استنكارا للشيوعية، واتهاما للشيوعيين بأنهم عملاء وخونة. وأعرب الشاب عن دهشته، وقال للضابط إنه لا يعرف شيئا عن الشيوعية أو عن الشيوعيين، وأنه لم يفعل شيئا يستوجب إلقاء القبض عليه، لذلك يجب إخلاء سبيله بدون قيد أو شرط. وغضب الضابط، وأكد له أن "الشيوعيين خونة وعملاء" وأنه يجب أن يصدقه ويكتب ما يمليه عليه. ورد الشاب قائلا إن كل هذا لا يعنيه، وأن المعتقلين الذين كان وسطهم (إن كانوا شيوعيين) قد عاملوه معاملة حسنة، وأنه ليس من الشهامة أو الرجولة أن يتهمهم بالخيانة أو العمالة. وهدده الضابط بأنه سيعيده إلى المُعتقل إذا رفض كتابة ما يمليه عليه. لكن الشاب أصر على رفضه. ووضعوه في إحدى الزنازين بالمباحث العامة، وأعادوا الضغط عليه عدة مرات لعله يعدل عن رأيه، لكنه لم يفعل، فأعادوه إلى المعتقل بعد أن يئسوا منه.

وقبل ترحيل المعتقلين إلى الواحات، كرروا المحاولة معه مع تحذيره بأن الواحات ستكون مقبرة الشيوعيين، فلن يخرج أحدهم منها حيا، فهي مليئة بالعقارب والثعابين السامة، ومن لم يمت بسبب السن، فسيموت قطعا بلدغة عقرب أو ثعبان. لكن الشاب لم يتزحزح عن موقفه، وظل معتقلا لمدة خمس سنوات. ولم يكن غريبا أن يخرج من السجن شيوعيا مناضلا شديد الإيمان.

فهذا إذن شاب لم يكن – عمليا – قد سمع عن الشيوعية، ولم يكن في ذهنه يوما أن يقوم بأي نشاط سياسي. لكن، عندما وضعته الظروف في اختبار

صعب، أثبت أنه شاب مصري عادي، يتمتع بالشهامة والرجولة ويتحمل المسئولية، ولم تلن عزيمته أمام هذه الظروف.

وعلى الجانب الآخر، استسلم عدد من الزملاء الذين كانوا شيوعيين مقتنعين بالفعل، لضغوط أجهزة الأمن، وكتبوا ما أملي علىهم، بل وعملوا جواسيس على زملائهم. وأذكر مثلا لزميل مشهور حتى الآن، اكتشف أحد الضباط يوما أنه يصيبه الرعب إذا رأى فأرا، فاختلق له سببا، ووضعه في زنزانة "التأديب"، وقطع الإضاءة عن الزنزانة بعد أن وضع فيها فأرا. وأخذ "الزميل المناضل" يبكي ويتوسل أن يخرجوه من هذه الزنزانة، إلى أن وافق على أن يصبح جاسوسا للمباحث على زملائه.

أذكر أيضا أنه قد تم ضبط ثلاث حالات من الشذوذ الجنسي (في حدود علمي، فقد كان يتم التكتم عليها). وقد قدم "الزملاء" الذين اشتركوا في هذه العمليات إلى مجالس تأديبية، وتم فصلهم من التنظيمات الذين كانوا ينتمون إليها. ولكن، إحقاقا للحق، فإن أحدا منهم لم يستنكر ولم يتصل بالمباحث، وإن توقفوا تماما عن أي نشاط سياسي فيما بعد.

والحقيقة أن الجنس كان يشكل مشكلة حقيقية. وكان الزملاء الأطباء ينصحون المعتقلين والمسجونين بممارسة العادة السرية مرة كل شهر على الأقل، حفاظا على توازنهم النفسي والعصبي.

وبهذه المناسبة، نشير إلى أن غياب المرأة كان يسبب بالنسبة للمسجونين والمعتقلين حالة من الجفاف النفسي والعاطفي، من الصعب تجاوزها. لكن هذه المشكلة لم يكن من الممكن إيجاد حل لها. كذلك كان اعتياد أعين المسجونين والمعتقلين على رؤية لون الصحراء الأصفر، ولون ملابس السجن البيضاء والزرقاء فقط، يجعل الألوان الأخرى بالنسبة لهم مجرد ذكرى بعيدة. وكانت رؤية

ألوان أخرى تكاد تصيبهم بالدوار. نفس الشيء بالنسبة للروائح. وكانت صابونة معطرة تحدث بهجة شديدة، ويشعر برائحتها الزملاء من مسافات طويلة.

وربما كان عدم ممارسة الجنس هو أحد الأسباب التي أدت بعدد بسيط من الزملاء إلى أن يصابوا باهتزاز عصبي حاد، فأصبحوا مرضى نفسيين وعصبيين.

وهكذا، فلم يكن الشيوعيون "طرازا خاصا" من الأشخاص، وإنما الظروف هي التي دفعتهم إلى محاولة إيجاد الحلول المتاحة حتى لا تصبح حياتهم في السجن جحيما لا يطاق، أو على الأقل فترة صعبة تسقط من حياتهم بلا مقابل.

ولست أعتبر من قبيل المبالغة أن أزعم – بعد عرض أوجه النشاط المختلفة – أن الساعات الأربع والعشرين التي يتكون منها اليوم كانت تكفي بالكاد، للقيام بكل ألوان النشاط التي كان المسجونون والمعتقلون يقومون بها في سجن الواحات. كان الواحد منهم منشغلا بعمل ما أو بالقراءة منذ مطلع النهار حتى يرقد على "البرش" (أو السرير في العام الأخير) لينام، لكن هذا النشاط المتعدد الجوانب لم يكن يصيبهم بأي إرهاق، بل على العكس، كان يزيد من طاقاتهم الذهنية والبدنية، حتى أن كثيرا من الزملاء كانوا يجوبون شوارع القاهرة معظم النهار والليل بعد خروجهم من السجن، ليس فقط لفرحتهم بحريتهم المستعادة، أو للرغبة في رؤية كل جديد طرأ على مدينتهم خلال سنوات سجنهم التي تجاوزت الخمس، وإنما أيضا لأنهم قد اعتادوا على بذل طاقة، كان من الصعب عليهم أن يتوقفوا فجأة عن بذلها.

وكان هذا النشاط المبذول هو السبب في أن غالبيتهم العظمى استطاعت أن تحتفظ، بل وأن تنمي قدراتها الفكرية والعضلية، وأن تصقل تجاربها في الحياة، وأن تعلمها خبرات جديدة تضاف إلى خبراتها السابقة.

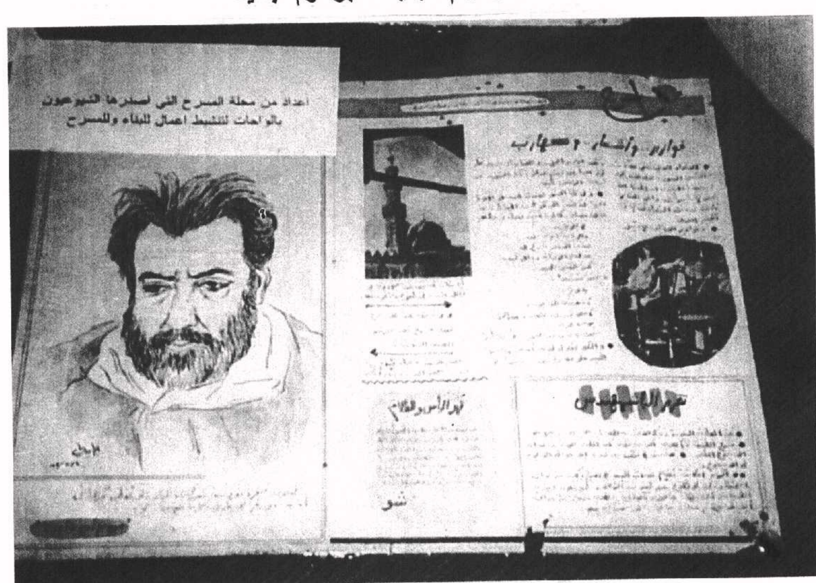
وهكذا، فقد كان لينين على حق تماما عندما قال إن السجن مدرسة الثوار، كما اكتشفت بعد هذه التجربة، لكن من الصعب على من لم يدخل السجن أن يدرك ذلك.



«التَوْتَوْ» في أخر مراحل نطوره. وكان المسجونون والمعتقلون
يقومون بطهي طعامهم على ناره

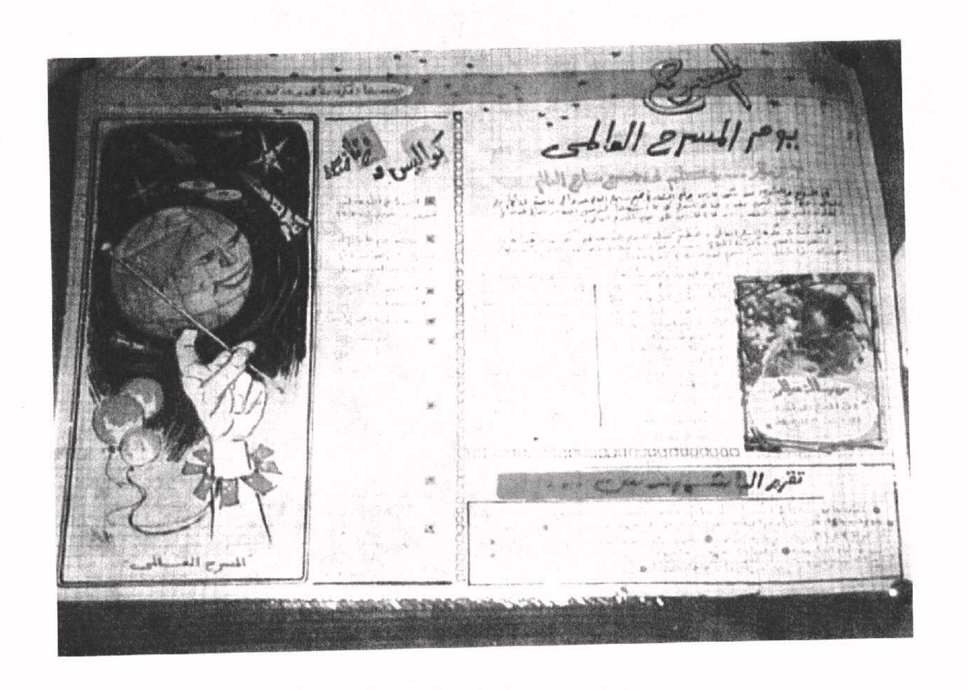


رسائل على ورق البفرة كان يتم تهريبها من السجن، وكتيبات على ورق البفرة أيضا كان يتم تجليدها برسوم جميلة



عـــدد آخـــر مـــن مـجلة المسـرح بـعد تطـورها





المسرح

يوم المسرح العالمى

كواليس و

المسرح العالمى

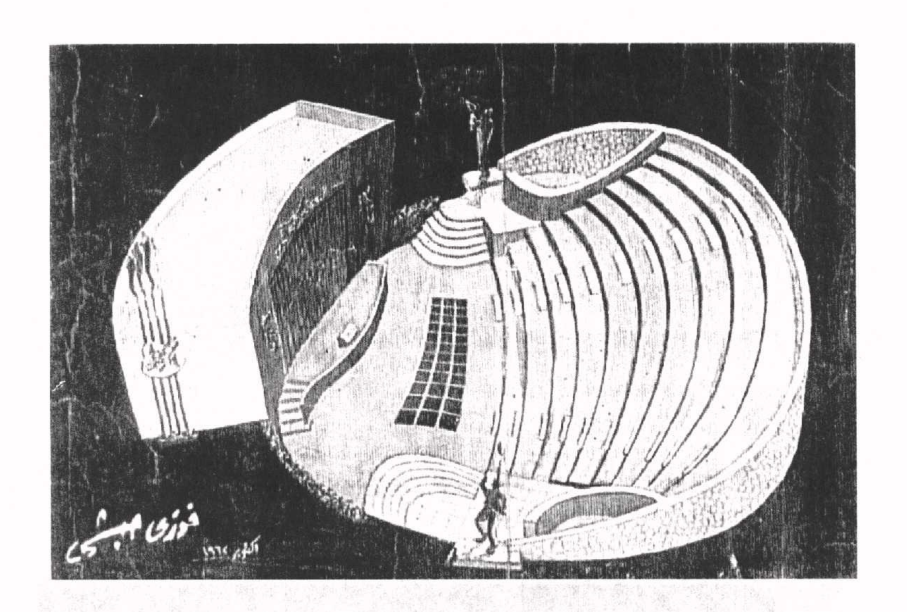
مجلة المسرح التي فكر في إعدادها وإصدارها الفنان حسن فؤاد أثناء ضرب الطوب اللازم لبناء المسرح



كارت معايدة بمناسبة عيد زواج رسمه مجدي نجيب

قطع شطرنج سوداء، كانت تصنع من لباب الخبز بعد خلطه برماد ورق محروق





مسرح سجن الواحات الخارجة كما رسمه المهندس فوزي حبشي، وكما تم تنفيذه
مع بعض التعديلات الطفيفة جداً

فهرس الكتاب

صدر للمؤلف . . .

ترجمة:

الاعترافات الزائفة (مسرحية ماريفو)	سلسلة روائع المسرح العالمي	1970
المنهزم (رواية)	الهيئة العامة للكتاب	1971
السينما والواقع (تأليف بول وارين)	الهيئة العامة للكتاب	1972

تأليف:

رابعة ثالث (رواية)	الهيئة العامة للكتاب	1997
أحلام بدرية (رواية)	هيئة قصور الثقافة	2000
قبض الريح (رواية)	تحت الطبع	

رقم الإيداع
٢٠٠١/٢٥٥٦

الترقيم الدولى
I.S.B.N
977-319-040-4